الجزء الثانى: عالم الفكر

الفصل الأول: المنهج الفكرى وأدواته

يخبرنا د. المسيرى أن عملية الانتقال من ضيق المادية إلى رحابة الإنسانية والإيمان لم تكن مسألة هينة أو يسيرة.

ولعلك قد أدركت أن الركيزة المحورية فى فكر د. المسيرى هى إيمانه بأن الإنسان ظاهرة مركبة لا يمكن أن تُردَّ إلى ما دونها: (الطبيعة/ المادة). لذا فدراسة الإنسان تحتاج لـ«**نماذج مركبة**» تحوى قدرًا من الثنائية؛ أى تضع فى اعتبارها روحانية الإنسان (**النفخة الإلهية**) كما تضع فى اعتبارها ماديته (**خلقه من طين**). أما النماذج التى نحتاجها لدراسة الطبيعة فهى «**نماذج مادية بسيطة**»، قوانينها الرياضية الآلية تتسم بقدر من الثبات، لذا يمكن التنبؤ بنتائجها والتحكم فيها إلى حدٍّ بعيد.

وقد صاحب ظهور هذه الرؤية الدينية فى فكر د. المسيرى تَغَيُّر فى منهجه الفكرى وأدواته، فتبنى ثلاثة مفاهيم منهجية أساسية مترابطة متداخلة تُعبِّر

عن **تحوله من النموذج المادى البسيط إلى النموذج المركب** الذى يفصل بين الإنسان وبين الطبيعة/ المادة. هذه المفاهيم هى:

1- الانتقال من الموضوعاتية الفوتوغرافية المتلقية إلى **الموضوعية الاجتهادية**.

2- رفض العقل السلبى وتبنى **رؤية توليدية للعقل**.

3- رفض الرصد المباشر للواقع، مع إدراك أن الإنسان يدرك الواقع المحيط من خلال (**الخريطة الإدراكية**). وكذلك تبنى مفهوم «**النموذج المعرفى كأداة تحليلية**» (**نموذج تحليلى**) عند دراسة وتحليل هذا الواقع. وسنعرض فى هذا الفصل لأهم نموذجين معرفيين فى فكر د. المسيرى وهما **الحلولية والعلمانية الشاملة**.

ويعتبر تأصيل هذه المفاهيم الثلاثة مع تطبيقها فى إخراج سفره العظيم (موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيرى جديد) هو العطاء الأكبر للدكتور عبد الوهاب المسيرى للفكر الإنسانى.

أولًا: من الموضوعاتية المتلقية إلى الموضوعية الاجتهادية

الثمرة السادسة والسبعون...

كن موضوعيًا، ولكن أى موضوعية يقصدون؟

*** الموضوعية الفوتوغرافية المتلقية**

تُعتبر «**الموضوعية الفوتوغرافية**» **نموذجًا معرفيًّا يتبنى أن المعرفة تتكون من التقاط وجمع أكبر قدر ممكن من تفاصيل الواقع (المادى) بصورة فوتوغرافية، وإدراجها فى محتوى البحث أو الدراسة**. نتيجة لذلك فإن الناس جميعًا يدركون الأمر بنفس الطريقة لو تهيأت لهم نفس الظروف لإدراكه، أى إن تهيأت الظروف كان الإدراك واحدًا، ويُسمىَ ذلك «**إدراكًا موضوعيًّا**».

ويُسمَى هذا النمط من التفكير «**التفكير المضمونى**»؛ فهو يركز على المضامين المباشرة للمعلومات والنصوص التى يتلقاها الدارس دون تحليل أو تمحيص، ودون ربط بين المعلومات المختلفة وتجريد نمط متكرر منها، ودون وضعها فى سياقها الاجتماعى أو التاريخى.

والعقل ـ حسب هذا النموذج ـ **مُستقبِل سلبى بسيط مثل الكاميرا**، يحاول أن يحيط بالواقع كله وأن ينقل تفاصيله بحذافيرها، أى أنه آلة غير قادرة على الحذف والتهميش والاختيار والتضخيم والتحريف. وهذا التصور **يلغى فعالية العقل وإبداعه**، ويلغى الذاكرة التاريخية (الخبرات السابقة للبشرية وللباحث) كما يلغى مفاهيم المدرِك الأخلاقية وتحيزاته وأوهامه وآماله وآلامه وأحلامه والتى تؤثر بالضرورة فى عملية الإدراك.

* كن موضوعيًّا ولا تكن موضوعاتيًّا

كن واقعيًّا ولا تكن وقائعيًّا

غُص وراء الفكر ولا تقف عند الأفكار

إن التعامل مع المعلومات بأسلوب التلقى الفوتوغرافى ليس «**موضوعيًّا**» وإنما «**موضوعاتيًّا**»؛ بمعنى أن الدارس يكتفى برصد الموضوعات والتفاصيل وتسجيلها دون أن يربط بينها، ودون أن يبين ما هو المركزى منها ويستحق الإبقاء وما هو الهامشى ويستحق الاستبعاد، كما لا يبين ما هو المُعبِّر عن النمط الكلى فنستنبط منه قاعدة أو قانون، وما هو مجرد واقعة غير مُمَثِّلة للنمط الكلى.

وهناك فرق بين «**الواقعية**» و«**الوقائعية**»، **فالواقعية** هى أن تصل إلى جوهر الواقع (الماضى والحاضر والمستقبل)، عن طريق الربط بين الوقائع

المختلفة وترتيبها وتجريد (استنباط) معنى عام منها يتجاوز النظر إلى كل معلومة على حدة. أما **الوقائعية**، فهى مرتبطة بالحاضر وحسب، وهى عملية رصد مباشرة للوقائع الحالية، تُهمل ما هو كامن. لذا نجد أن الانهزاميين من دعاة التطبيع مع إسرائيل والعولمة والرضوخ للأمر الواقع يدَّعون دائمًا أنهم من «الواقعيين»، وهم فى حقيقة الأمر وقائعيون يُسقطون الأبعاد التاريخية والقدرات الكامنة التى يفجرها إدراك الإنسان إنه صاحب حق. أما الواقعيون الحقيقيون؛ فهم المجاهدون فى جنوبى لبنان والمنتفضون فى فلسطين الذين تجاوزوا الظاهر المحيط وتمسكوا بالحق وتحركوا فى إطاره، فأوقعوا الهزيمة بالعدو وأصبح النصر أمرًا واقعًا!.

ومن ثم فهناك فرق بين «الفكر» و«الأفكار». **فالأفكار**؛ هى أن يرصد الإنسان الفكرة تلو الأخرى ويسجلها دون أن يحاول أن يرى العلاقة بينها. أما **الفكر** فهو أن يقوم المرء بالربط بين الأفكار المختلفة ثم يقوم بإعادة تركيبها داخل منظومة محددة تتسم بقدر من التجريد والاتساق الداخليين ويُسمَّى هذا النمط من التفكير بـ «**التفكير البنيوى**».

*** الحقائق والحقيقة والحق**

ومن ذلك كله، ينبغى أن نفرق بين الحقائق والحقيقة. **فالحقائق** هى معطيات مادية متناثرة لا يربطها رابط، أما **الحقيقة** فللعقل الإنسانى فيها دور كبير، إذ يقوم بالربط بين الحقائق ثم تجريد نموذج منها. أما **الحق** فهو ذروة السنام، إنه الأمر كما خلقه الله ﷻ أو كما نزل به الوحى، دون أن تشكله رؤية المدرِك بما له من تحيزات وأوهام وآمال وآلام.

*** الموضوعية المتلقية من خلال نكتة وجريمة**

من أطرف **النكت** عن الموضوعية الفوتوغرافية، التى تلغى دور العقل تمامًا، تلك التى حكاها لى د. أسامة الباز: سار شحاذ فى المدينة يعلن أنه

سيتزوج ابنة السلطان، وحينما تمادى فى ادعائه أمسكه أحدهم من قفاه، وقال: «لِمَ تُزَوِّج هذه الأكاذيب أيها الشحاذ؟»، فقال: «فى واقع الأمر، المسألة شبه منتهية، فأنا موافق على هذا الزواج، كما وافق كل من أبى وأمى عليه، ولم يبق سوى موافقة ابنة السلطان وأبيها وأمها». كنت أسأل طالباتى، لِمَ نضحك لهذه القصة مع أن الشحاذ صادق فيما يقول؟! ومن خلال الحوار نصل إلى أن الشحاذ، من ناحية **الموضوعية المتلقية**، لِمَ يكذب، فهو وأبواه يمثلون 50 ٪ من العناصر الموضوعية المُكَوِّنة للظاهرة، ولكن الأمر يختلف تمامًا إن أخذنا فى الحُسبان مدى قيمة وفاعلية كل عنصر فى القضية.

وأذكر مثلًا آخر: دخل مخبران غرفة وقعت فيها **جريمة**، وألقيا نظرة عليها. وبعد قليل دَوَّن أحدهما المعلومات التالية: جثة قتيل - مسدس اُستخدم لِتَوه - محفظة فارغة - زر أخضر، واستخلص من هذه المعلومات أن هناك جريمة قتل اُستخدم فيها مسدس بهدف السرقة، وأن القاتل كان يرتدى قميصًا أخضر. أما المخبر الثانى، فقد استمر فى عملية **الرصد الموضوعى**، وأخذ يُدَوِّن: كرسيان - قُطر المائدة - لوحة - لون السقف - لون السيراميك - ارتفاع الحائط... إلخ. والحقائق التى أوردها المخبر الثانى صحيحة لا مراء فيها، لكنه لم يستخدم عقله فى عملية الربط والتجريد التى تؤدى إلى اختيار بعض العناصر واستبعاد البعض الآخر، ومن ثم **تاه المخبر فى خضم المعلومات الدقيقة الكثيرة غير المترابطة التى ليس لها أى قيمة تفسيرية**. كما تُبين القصة أن تزايد المعلومات لا يؤدى بالضرورة إلى زيادة المعرفة والحكمة!.

*** المعلوماتية: البحث والتأليف بأسلوب الموضوعية الفوتوغرافية**

ويرتبط تمام الارتباط بالموضوعية المتلقية الفوتوغرافية مفهوم «المعلوماتية»؛ أى تصور أن **المعرفة هى حشو المعلومات ومراكمتها**، باعتبار

أن المعلومة مهمة فى حد ذاتها لا بسبب علاقتها بالموضوع الكلى. ومن ثم يصبح «**التأليف**» هو أن يحشد المؤلف أكبر قدر من المعلومات بغض النظر عن عدم ترابطها وعدم وجود بؤرة مركزية لها (فكرة رئيسية تدور حولها المعلومات). ويظن الباحث أنه كلما زادت المعلومات زادت درجة الاقتراب من الواقع، وتكون النتيجة أن يحشد الباحث معظم المعلومات والمراجع دون ربط أو تجريد (دون استخلاص قواعد عامة). وهذا المنهج السطحى لا يُفرِّق بين جمع مادة البحث وعملية البحث الحقيقية للخروج بنتائج، ومثال ذلك «**البحث الموضوعاتى**» محاولة إحصاء عدد القطط فى زنزبار مثلًا ! فهو جهد لا طائل من ورائه، والبحث الحقيقى ليس إحصاء عدد القطط، وإنما تصنيفها داخل أُطر محددة.

أذكر مرة أن طلب منى أستاذى البروفسير فيليبس أن أكتب بحثًا عن **كتاب الشعر لأرسطو**، ففعلت وقرأته فى المحاضرة، وكان تعليق البروفسير طريفًا وحكيمًا للغاية؛ إذ قال ساخرًا: «مستر المسيرى كلنا نعرف أنك ذكى للغاية، بل نعرف أنك تفوق أرسطو علمًا، لكن فلتحاول أن تفهم قبل أن تُصدر أحكامك». وهذه بالمناسبة حقيقة ! فأى طالب فى أى جامعة فى العالم «**يعرف**» قدر ما عرفه أرسطو عشرات المرات من ناحية المعلومات، أما من ناحية المقدرة على التحليل والرؤية النقدية التى تصل إلى جوهر الأمور، فالأمر جدٌ مختلف. لقد كان بحثى **ماركسيًّا ملتهبًا**، قمت فيه بدمغ الفيلسوف اليونانى «لسكوته عن الظلم المحيط به ولانحيازه للأسياد ضد العبيد» دون أن أضع فى الاعتبار ظروف العصر. ولم يكن نقد البروفسير فيليبس لى درسًا فى التواضع وحسب، وإنما كان درسًا فى ضرورة أن يسبق الحكم الأخلاقى (أو الطبقى أو السياسى) عملية فهم وتدبر. وهذا ما أطالب به فى الوقت الحالى عند دراسة علاقتنا بالصهيونية وإسرائيل، بل مع كل الظواهر؛ أن نبتعد عن الشجب والشتم دون أساس من دراسة عميقة.

*** صـراع الموسـوعة مع الموضـوعاتية المتلقية**

علَّق أحد أساتذة اللغة العبرية على «**الموسوعة**» بقوله: «إن المسيرى جمع من المعلومات قدر استطاعته، ومن ثم لا يمكنه أن يأتى بعد ذلك بجديد». وهذا يتعارض تمامًا مع إسهامى الأساسى فى الموسوعة؛ وهو أننى توصلت **إلى نموذج معرفى، يُيسِّر تحليل الظاهرة الصهيونية وفهمها.**

فعلى سبيل المثال؛ عُقد **المؤتمر الصهيونى الأول** فى بال عام 1897، هذه المعلومة توجد فى كل الموسوعات، ومن ثم فأستاذ العبرية لم يرى سوى أننى نقلتها إلى الموسوعة، ولم يضع يده على الإشكاليات التى تثيرها الموسوعة حول هذه المعلومة؛ مثل لِمَ عُقد هذا المؤتمر فى ذلك التاريخ ولم يُعقد قبل أو بعد ذلك؟ ولِمَ عُقد فى بَال (حيث توجد جماعة يهودية صغيرة) ولم يُعقد فى ميونيخ التى كَانت توجد بها واحدة من أكبر الجماعات اليهودية فى العالم الغربى؟، لقد **كان الرجل يبحث عن المعلومة ولم ير الإطار التحليلى.**

وقد واجهتنى مشكلة الموضوعاتية المتلقية بحدة فى محاولتى **تعريف الصهيونية**. فالصهيونية كما وردت فى الكتب والقواميس الغربية هى «حركة تحرير الشعب اليهودى» أو «عودة اليهود لوطنهم القومى أو أرض أجدادهم أو الأرض التى وعدهم الإله إياها»، وهنا تساءلت: «هل تتطلب الموضوعية منى نقل هذا التعريف بحذافيره، رغم أنه يتضمن مفاهيم كثيرة لا يمكن قبولها؟، وإن رفضت هذا التعريف، هل يتعارض هذا مع الموضوعية ويَسِمُنى بالذاتية؟».

وقد استشرى داء الموضوعاتية المتلقية والمعلوماتية إلى درجة كبيرة، حتى إن أحد مراكز البحوث طلب منى أن أكتب دراسة فى موضوع يهود العالم، واشترط الاقتصار على ذكر المعلومات بلا تحليل! وهو أمر مستحيل،

فكتبت مقالًا كان مظهره معلوماتيًا واضحًا (جداول - إحصائيات... إلخ)، أما مخبره فكان تحليليًا، ومن ثم وجد طريقه إلى النشر بسهولة.

*** الموضوعاتية المتلقية والإعلام المُوَجَّه**

يمثل الكثير مما يعرضه علينا الإعلام الغربى حقائق جزئية للغاية، يُطلَق عليها «**أكاذيب حقيقية** True lies»، أى **كلمة حق يُراد بها باطل**. فقد يعرض الإعلام حقائق ووقائع لا مراء فيها، ومع هذا يتم توظيفها بطريقة لا تتفق والحقيقة الكلية، ومن ثم فهى «أكاذيب». فهل الموضوعية تعنى أن نُورِد الأخبار كما هى، رغم إدراكنا أنه قد تم انتقاؤها بعناية لإخفاء عشرات الأخبار الأخرى أو تهميشها؟؛ انظر إلى العمليات الاستشهادية التى يقوم بها الفلسطينيون، فهى إرهاب عندما يُسقط الإعلام أسبابها ويُسقط ما يفعله الصهاينة بالفلسطينيين.

وقد تفنَّنت محطة الـCNN فى تفتيت القضايا وتحويلها إلى وقائع ومعلومات متناثرة، حتى إن نشرة الأخبار تحوَّلت إلى **نوع من أنواع التسلية**، إذ تعطيك المعلومات فور حدوثها، ولكنها معلومات تُعرض منفصلة عن قضاياها الأم، ومن ثم لا دلالة لها. ومما زاد الأمر سوءًا أن **الإعلام العربى** سقط فى الموضوعاتية المتلقية، إذ اكتفى بنقل المفاهيم الغربية بلا وعى أو إدراك.

*** الإنسان الموضوعى والإنسان الموضوعاتى**

يمكن تلخيص المفاهيم السابقة من خلال المقارنة بين:

الإنسان الموضوعى	**الإنسان الموضوعاتى**
صاحب **موضوعية اجتهادية**	صاحب **موضوعية متلقية**
باحث عن **الفكر**	باحث عن **الأفكار**
يغوص وراء **الحقيقة**	يقف عند **الحقائق**

باحث بالأسلوب **التحليلى** صاحب تفكير **بنيوى** **واقعى**	باحث بالأسلوب **المعلوماتى** صاحب تفكير **مضمونى** **وقائعى**

الثمرة السابعة والسبعون...

الموضوعاتية المتلقية والتعليم الجامعى

ينظر د. المسيرى إلى **هموم الجامعة وأمراضها** من خلال مفهوم «النموذج المعرفى»، فيجد أن «الموضوعاتية الفوتوغرافية المتلقية» تقف وراء معظم هذه المشاكل، حتى إنه يُرجع عشرة أمراض جامعية إلى هذا المفهوم. بينما ينظر آخرون إلى كل مشكلة منها باعتبارها مرضًا قائمًا بذاته:

أولًا: تتضح سيطرة النموذج المعلوماتى على الجامعة فى **ظاهرة الإملاء** التى أصبحت الأسلوب الأساسى فى التعليم الجامعى، ينتظرها الطلبة ويقدمها الأساتذة وتصبح بمثابة الاتفاق الصامت بينهم. وإذا حاول أحد الأساتذة إلقاء محاضرة حقيقية تتطلب الحوار وإعمال العقل وجد نفسه يسبح ضد التيار.

ثانيًا: يلى الإملاء طبع المذكرات وبيعها للطلبة بسعر معقول أو مغالٍ فيه حسب درجة طمع الأستاذ، ومن هنا نشأت **مشكلة الكتاب الجامعى**.

ثالثًا: نصل إلى الهوة مع «**الدروس الخصوصية**»، وفيها تنحصر العملية التعليمية فى تدريب الطلبة على طريقة اجتياز الامتحانات. كنت فى أواخر أيامى فى الجامعة إن بدأت فى التأمل الفلسفى فى أحد النصوص أو أثرت قضية فكرية تسألنى الطالبات: «هل هذا ضمن

المقرر؟ هل هذا سيأتى فى الامتحان؟». وهكذا تنتصر الحقائق الصماء التى لا معنى لها، وتضيع الحقيقة ويذوى المعنى.

رابعًا: كذلك فإن **فلسفة الامتحانات** تنبع من نفس النموذج المعلوماتى، إذ يصبح هَم الطلبة أن يحفظوا عن ظهر قلب ما لقنهم إياه الأستاذ ليجتروه فى الامتحان. فى إحدى السنوات، أخبرت الطالبات أننى لا أمانع فى أن يرجعوا إلى الكتب فى الامتحان لمراجعة بعض النصوص الشعرية، فالمطلوب هو أن يُعملن عقولهن ويقمن بمقارنة نصين أو ثلاثة ثم يكتبن مقالًا نقديًّا مقارنًا، لكن السيدة رئيسة اللجنة عَدَّت هذا نوعًا من الغش، وعبثًا حاولت أن أبين لها أن القضية ليست «**تذكر النص**» وإنما التعامل معه تحليلًا ونقدًا من وجهة نظر الطالب، ولكن هيهات، فالأستاذة المذكورة كانت مسجونة فى رؤيتها المعلوماتية الموضوعاتية الضيقة، ولعلها لم تسمع تعليق الشيخ محمد عبده حين قيل له إن فلانًا قد حفظ صحيح البخارى، فقال: «لقد أضيفت إلى البخارى نسخة جديدة!».

خامسًا: يتصور البعض أن موضوع الرسالة أو البحث يجب ألا يكون قد سبق الكتابة فيه، ذلك لأن جميع الباحثين (الموضوعاتيين) سيستخرجون من المراجع نفس المعلومات، بغض النظر عن خبرتهم وتجاربهم ورؤيتهم. أما أن يكون **موضوع الرسالة قضية خاصة** يشعر بها الباحث وتولد أسئلة محددة يطرحها على نفسه وعلى غيره ويحاول الإجابة عنها من خلال فهمه وخبرته فهذا أمر غير وارد. لذلك أصبح من المعتاد أن يُقال لطالب تقدم بموضوع رسالته: «لقد كُتب فى هذا الموضوع من قبل»، وكأن وجهة نظر الدارس مسألة عديمة الأهمية. ويساهم فى هذا التدهور تأثر الباحثين فى

العلوم الإنسانية بالعلوم الطبيعية التجريبية التى تتميز غالبًا برؤية واحدية.

سادسًا: إن الكثير من **الأبحاث الجامعية** الآن ليست «بحوثًا» على الإطلاق، فمعظمها عبارة عن المادة البحثية الأولية بعد تصنيفها سطحيًّا، لذا حل التوثيق (الموضوعاتية المتلقية) محل التفكير والتحليل والتفكيك والتركيب (الموضوعية التحليلية الإبداعية). ومن ثم ظهر «**داء النصوصية**»، وهو أن يكتفى الباحث بحشد أقوال الآخرين، الواحد تلو الآخر، تأييدًا لكلامه. وقد أخبرنى أحد كبار الأساتذة الموضوعاتيين بنظريته فى مسألة البحث العلمى هذه، فهو يرى أن كل أستاذ جامعى يمتلك قطعة واحدة من العجين لا أكثر ولا أقل (مجموعة من المعلومات المتوافرة لديه) ليقوم بتشكيلها حسب الطلب، فهى تارة مقال (مربع)، وتارة أخرى بحث فى مؤتمر (مستدير)، وتارة ثالثة حديث إذاعى (كالإصبع)، ولا أدرى ما حجم هذه العجينة الآن بعد الإنترنت وثورة المعلومات!.

كنت ذات مرة أناقش **رسالة موضوعها (العنصرية الصهيونية)**. لم تزد الرسالة عن إثبات أن الصهيونية حركة عنصرية! وقد تم ذلك من خلال مئات الاقتباسات. وبدأت مناقشتى بأن أخبرت الباحثة بأنها لم تأت بجديد على الإطلاق، إذ إنها لو سألت عربجيًّا فى ميدان التحرير عن الصهيونية، لقال: «الصهيونية عنصرية يا ست هانم، عنصرية طبعًا». وأخبرتها أنه كان عليها أن تتعامل مع السمات الخاصة للعنصرية الصهيونية؛ جذورها ـ مسارها ـ مستقبلها، أى شىء إلا أن تثبت ما هو واضح وما هو معروف.

سابعًا: و يتضح نفس النموذج المعلوماتى فى **مناقشة الرسائل**، إذ تتحول المناقشة إلى مناسبة لاستعراض المعلومات. فيسأل الأساتذة

الممتحنون الطالب لِمَ لَمْ يأت بكذا، ولِمَ لَمْ يذكر كذا، وأنه كان بإمكانه أن يطنب فى الحديث فى هذه النقطة أو تلك.

ثامنًا: وقد وصل مرض الموضوعية المتلقية إلى **المعايير التى يُرقَّى بحَسَبِها الأساتذة**. فلجان الترقية أصبحت تركز على **عدد مراجع البحث وتاريخ نشرها**، وتتجاوز عن وجهة نظر الباحث التحليلية. كما أصبحت الكتب التى يبدعها الباحثون لا تُقبَل فى لجان الترقية! ويبدو أن سمعة الكتب قد انهارت بعد أن تحولت إلى «مذكرات» تحتوى على مجموعة من المعلومات العامة المنقولة من مراجع أجنبية أو عربية، وإذا عدنا إلى الخمسينيات نجد أن أستاذ الجامعة المساعد كان لا يتقدم للترقية لوظيفة أستاذ إلا بعد أن ينتهى من تأليف كتاب، يُضَمِنَه جماع فكره ورؤيته.

ومن الأوهام الأخرى المسيطرة على لجنة الترقية «وهم التنويع»، أى أن يكتب المتقدم للترقية فى عدة موضوعات، لا موضوع واحد، بالرغم من أن التعدد والتنوع يمكن أن يكونا مؤشرًا على **انعدام وجهة النظر** والمقدرة على حشد المعلومات. ومع ذلك أصبح على الأستاذ/ البقال تنويع دراساته (أو بضائعه) بشكل يُرضى لجنة الترقية بمعاييرها المعلوماتية.

وقد استشرى المرض المعلوماتى حتى أصبح على المتقدم للترقية فى الوقت الحاضر أن **يختار موضوعًا بالقرعة!** نعم بالقرعة، ليكتب عنه فى غضون مدة قصيرة، دون أى اهتمام بميوله الفكرية أو القضايا والإشكاليات التى يواجهها. فالمهم هو اختبار مقدرته على حشد المعلومات بسرعة وإثبات أن أحدًا لم يساعده.

تاسعًا: وحينما يقرر أحد الأساتذة الكتابة عن موضوع ما، فإنه **يخفيه عن زملائه** بدلًا من مناقشتهم فيه، ذلك لأن البحث ـ حسب تصور

هؤلاء ـ يتكون من حشد المعلومات عن موضوع ما، وبالتالى يمكن أن «يلطشه» أحدهم ويسرع بالكتابة (أى حشد المعلومات) عنه قبل غيره.

عاشرًا: وتندرج تحت نفس المرض (الموضوعية المتلقية)، بالإضافة إلى مرض آخر وهو الروتين، محاولتى أن **أُحَوِّل نفسى من أستاذ أدب إنجليزى إلى أستاذ علم اجتماع** (لأن التناقض بين تخصصى الأكاديمى واهتماماتى الفكرية كان آخذًا فى الاتساع)، وخاصة أن لوائح الجامعات المصرية تسمح بذلك، شريطة أن يكون للأستاذ المتقدم عدد من المؤلفات فى التخصص الجديد. كنت أتصور أن مؤلفاتى فى الصهيونية تندرج تحت هذا التصنيف، بل كان كتابى «الأيديولوچيا الصهيونية: دراسة حالة فى علم اجتماع المعرفة» يُدرَّس فى مقررات علم الاجتماع فى بعض الجامعات العربية، وزيادة فى الاحتياط وتخطيًا للروتين سجلت لدرجة الماجيستير فى قسم الاجتماع فى الجامعة الأمريكية. ولكن قابلت أحد أعضاء لجنة الترقية لدرجة أستاذ فى علم الاجتماع فأخبرنى بأن الأمر الذى أحاول إنجازه مستحيل؛ لأن هذا يعنى أننى أبدأ من القمة وهذا ما لا تسمح به البيروقراطية فى مصر، بلد الأهرامات القديمة والراسخة. فتوقفت عن محاولتى المحكوم عليها سلفًا بالفشل، وقررت أن أحسم التناقض بالاستقالة تمامًا من الجامعة حينما حان الوقت.

قارن ذلك بما حدث مع صديقى كافين رايلى الذى لم يحصل على درجة الدكتوراة بسبب ما أصابه من إنهاك فى أثناء تأليف كتابه الغرب والعالم. ولكن أحد أساتذته فى جامعة رتجرز سمع بالكتاب، فاستدعاه وطلب منه

تقديم الفصل الأول والثانى من كتابه كرسالة للدكتوراة وحصل بناء عليهما على الدرجة !.

الثمرة الثامنة والسبعون...

الموضوعية الاجتهادية: التحليلية: الإبداعية: الخَلَّاقة

إن **جوهر عملية البحث والإبداع** ـ فى تصورى وتصور الكثيرين غيرى ـ هو:

1- أن يكتشف الإنسان علاقة بين ظاهرتين لم يكتشفها أحد من قبل.

2- ثم يربط بين الظاهرتين ويستنتج نمطًا عامًا (قاعدة) يمكن تطبيقه على المواقف المشابهة.

3- أن يرى الواقع من جديد فى ضوء هذه العلاقة الجديدة.

ولذا أسمى هذا النوع من التفكير «**الموضوعية الاجتهادية**» (فى مقابل الموضوعاتية المتلقية أو الفوتوغرافية)، وتعنى ألا ينقل الإنسان الواقع بحذافيره كأنه ببغاء أو آلة تصوير بلهاء، وإنما **يُعمل عقله وخياله فيربط بين التفاصيل ويجرد (يستخلص) منها أنماطًا متكررة تساعده على فهم الواقع بطريقة أعمق وأشمل.**

يجب أن نعترف أن الرصد المباشر للظواهر والذى تتسم به **الموضوعاتية الفوتوغرافية** المتلقية يتميز **بالابتعاد التام عن الذاتية**. وفى المقابل فإن الترتيب والربط بين العناصر الذى تتميز به **الموضوعية الاجتهادية** يدخل فيه عنصر الاختيار الذى يرتبط «**بذات**» الباحث التاريخية والفردية، لذلك لا بد أن نحدد **أولويات** ما نرصده من المعلومات؛ أيها جوهرى يستحق الإبقاء وأيها فرعى يستحق الاستبعاد من وجهة نظرنا نحن بينما يقوم باحث آخر يتعامل مع نفس القضية باستبعاد معلومات يراها الباحث الأول أولا بالإبقاء، إذ لا

توجد وجهة نظر مطلقة فى العلوم الإنسانية، ولعل وجود هذه الأولويات من أهم ما يميز العلوم الإنسانية عن العلوم الطبيعية.

*** البحث والتأليف فى ضوء الموضوعية الاجتهادية**

ينبغى أن ينطلق المؤلف فى بحثه من إشكالية / تساؤل محدد، وإلا وجد نفسه يحشد المعلومات حشدًا دون منطق داخلى واضح. وفى أثناء الكتابة، تتوافر لدى الباحث مجموعة من المعلومات، بعضها مهم للغاية فى حد ذاته، لكنها قد تقع خارج سياق البحث وتشتت القارئ عن متابعة الأطروحة الأساسية، ولذلك يجب على الباحث استبعادها، وهذا أمر مهم وصعب للغاية، فالمهم هو **اختيار المعلومة المناسبة ووضعها فى الإطار الكلى لا مجرد ذكرها**. ودائمًا أنصح طالباتى **بالابتعاد عن منهج السرد التاريخى**، إذ يصبح هَم الباحث هو حشد المعلومات المرتبة تاريخيًا، وبدلًا من ذلك أوصيهن أن يكون **البحث من خلال موضوعات وإشكاليات** (مثل هذه الرحلة).

كذلك يتناول **كتاب الغرب والعالم** (الذى كتبه كافين رايلى) تاريخ الحضارة من خلال موضوعات وإشكاليات ومن خلال رؤية مُرَكَّبة؛ لا تَرُد التاريخ والإنسان إلى عالم المادة والطبيعة، ولا تُعطى أى مركزية للحضارة الغربية، وإنما تقدم رؤية عالمية حقة يتنقل صاحبها بسهولة ويسر من المدينة إلى القرية ومن الحاضر إلى المستقبل ومن عالم الآلة إلى عالم الفن.

وكان **تجاوز الموضوعاتية المتلقية والرصد المباشر** هو ديدنى فى دراساتى وأبحاثى. مثال ذلك **تحليلى لواقعة تشييد متحف الهولوكوست** (المحرقة) فى الولايات المتحدة: عند إنشاء المتحف قال البعض إن هذا تعبير عن قوة النفوذ الصهيونى، ولكن مع قليل من البحث والتمحيص، اكتشفت أن الدولة الصهيونية لم تكن سعيدة تمامًا بهذا المتحف، فهى تَعُدُّ نفسها مركز اليهود واليهودية، وقد أسسوا نصب ياد فاشيم فى إسرائيل ليكون رمزًا

للهولوكوست ومزارًا مقدسًا يتعبد فيه «اليهود»، فإذا بنى يهود الولايات المتحدة متحفًا للمحرقة كان هذا توزيع للقداسة وتنافس مع أرض الميعاد، ومن هنا كان اعتراض بعض الإسرائيليين الفاهمين على إقامة هذا المتحف. ومثل هذا التركيب **(تعارُض الظاهر مع الباطن)** لا يمكن للموضوعاتية المتلقية اكتشافه، فهى تكتفى بالتلقى وبالرصد السطحى السريع.

*** النقد الأدبى فى ضوء الموضوعية الاجتهادية**

فى محاولتى ترسيخ مفهوم الموضوعية الاجتهادية فى وجدان الطلبة والطالبات، كنت أخبرهم أن النص الأدبى لا ينطق بشىء بمفرده، كما أن الناقد لا يمكنه أن ينطق بشىء دون نص. لذا فالعملية النقدية فى جوهرها هى **عملية «استنطاق»**؛ فالناقد يقول ما يقول من خلال النص، ومن ثم فالنص يكشف عن سره بمقدار فهم الناقد، وبذلك يصبح البحث عن المعنى «الوحيد» للنص بحث عقيم.

كنت أدرس الأدب الرومانتيكى الإنجليزى فى جامعة كولومبيا مع أحد كبار الأساتذة، وذات يوم سأل سؤالًا طريفًا إذ قال: ماذا كان الشعراء الإنجليز سيفعلون بلا جبال؟ (إذ إن الجبال مُكوِّن أساسى فى الشعر الرومانتيكى الإنجليزى)، فكان معظم الطلبة يجيبون بأنه من المستحيل تخيل الشعر الرومانسى الإنجليزى بدون جبال، أما أنا فقلت إن الجبال ليست لها أهمية فى حد ذاتها، فالشعر الرومانتيكى لا يتناول الطبيعة فى حد ذاتها، وإنما باعتبار أنها مادة خام يشكلها عقل الإنسان حسب رؤيته. لذا **لو لم يكن فى إنجلترا جبال، لاخترع الشعراء الإنجليز جبالا** أو شيئًا يشبه الجبال كبديل لها، ما أشبه ذلك المعنى بقول الشاعر نزار قبانى:

الحبُ فى الأرض بعضٌ من تخيلنا　　**لـو لم نجـده عليهـا لاخترعنـاه**

ولا أظن أن نزارًا قد سمع الحوار ونقل عنى الفكرة ! ولكنها ظاهرة التأثير والتأثر التى سنعرض لها فيما بعد.

وكان هذا الأستاذ نفسه مغرمًا بقصيدة «قوبلاى خان» للشاعر كوليردج، وهى قصيدة عن سلطان شرقى شيد قبة تنبجس فيها نافورة. وكان الأستاذ يرى أن كل قصائد كوليردج هى تنويعات على هذه القصيدة، لذا كان يبحث دائمًا عن النوافير فى قصائد كوليردج، فذكرت له أن جوهر النافورة هو الاندفاع إلى أعلى، فهى حركة من الأرض إلى السماء، وهذا ما يجب أن نبحث عنه، لذا فالأشجار الباسقة التى تعانق السحاب أو الطيور التى تنطلق من الأرض إلى الأفق كلها تنويعات على النافورة. هنا اضطر الأستاذ للاعتراف بمقدرتى على التجريد والتحليل وتجاوز السطح المباشر.

ثانيًا: العقل التوليدى، ورفض العقل السلبى

الثمرة التاسعة والسبعون...

العقل التوليدى فطرة فى النفس الإنسانية

حجبها رُكام الموضوعاتية المتلقية

ارتبط رفضى للموضوعاتية الفوتوغرافية بالنظر إلى العقل باعتباره «كيانًا توليديًا وليس مجرد وعاءً ماديًّا متلقيًا للمعلومات». وفكرة **العقل التوليدى فكرة أساسية فى المنظومة الإسلامية**، فالإنسان يولد على الفطرة، أى عنده استعداد داخلى لفعل الخير كما أن عنده استعداد داخلى لفعل الشر، عليه أن يختار بينها، ويصف الله ﷻ هذه الفطرة بقوله ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: 10].

ويرى الفيلسوف الألمانى إيمانويل كانط أن العقل ليس مجرد صفحة بيضاء تنطبع عليها المعطيات المادية، إنما هو كيان **زُوِّدَ بمفاهيم قَبْلية** سبقت التجربة الحسية، وهى مفاهيم يؤمن العقل بصدقها أو كذبها بمعزل عن التجربة. ومن أمثلة المعرفة القبلية؛ مقدرة الطفل على أن يُولِّد كلمات جديدة من خلال القياس؛ فيقول «حَجَرات» (بدلًا من «أحجار» التى يقولها الكبار) قياسًا على صيغة الجمع لكلمات أخرى تعلمها (مثل أكلات)، بالرغم من أنه لم يتعلم قواعد القياس من أحد. هذه المفاهيم الفطرية القَبلية تجعل العقل قادرًا على إعادة صياغة الواقع وترتيبه، بدلًا من تلقيه بشكل ببغائى.

ولكى أوضح لطلبتى وطالباتى مقدرة العقل التوليدى على الإبداع، كنت أقول لهم (مازحًا) إنهم لو قرءوا أعمال أرسطو بعناية للاحظوا مدى تأثره بأفكارى. كنت بهذه الطريقة أحاول أن أبين لهم أننى الأستاذ المصرى العربى المسلم من دمنهور يمكن أن أصل إلى أفكار ربما لا تقل فى عظمتها أو روعتها عن أفكار أرسطو. وهى مبالغة الهدف منها تنبيههم **ليتعرفوا على إمكاناتهم الداخلية**، ولا يخافوا من الإبداع.

وبطبيعة الحال لم أكن ألجأ فى محاضراتى إلى الإملاء مطلقًا، وكنت أخبر الطالبات أن **ما أقوله اليوم قد يختلف عما قلته بالأمس**، فأنا أتغيَّر وعقلى يُولِّد دائمًا الجديد من الأفكار تبعًا لتنوع تجاربى الحياتية والوجودية. كما كانت محاضراتى تأخذ شكل أسئلة لتوليد الإجابات داخل الطلبة ليكتشفوا إمكاناتهم (هذه الطريقة ممكنة مع أعداد معقولة من الطلبة، أما مع الجيوش الجرارة فليس هناك بديل للمحاضرات الإملائية والمذكرات الجامعية، التى تتبعها مفاوضات قبل الامتحانات بين الأستاذ والطلبة لحذف بعض الأبواب حتى ينكمش المقرر).

الثمرة الثمانون...

العقل التوليدى يحل إشكالية التأثير والتأثر

تُرجع ظاهرة «**التأثير والتأثر**» مَواطن الشبه فى إنتاج أديب وآخر إلى انتقال صورة أو عبارة أو كلمة أو كلمتين من خلال قراءة أحدهما لأعمال الآخر. ونحن لا ننكر إمكانية حدوث هذا النوع من التأثير والتأثر، لكن إذا نظرنا عبر منظور «**مقدرة العقل التوليدية**» لأدركنا وجود عوامل أخرى تؤدى إلى اهتداء المفكرين لأفكار متشابهة؛ مثل إنسانيتهما المشتركة، وتماثل العقول الإنسانية، وانتشار مناخ ثقافى معيَّن يؤدى إلى نفس النتائج فى مجتمعات مختلفة.

الثمرة الحادية والثمانون...

جمال حمدان، عبقرى فذ صاحب عقل توليدى

أكـاديمى أفلت من قبضة الموضوعاتية المتلقية

لقد **فقدت كلمة «أكاديمى» معناها**؛ إذ أصبحت تشير إلى أى شخص محدود الإبداع عديم الخيال، يُلحق ببحثه قائمة طويلة من المراجع، ويشرح أطروحته بطريقة مملة، يُحدث أصواتًا معرفية ولا يُبدى رأيًا (أسمع ضجيجًا ولا أرى طحنًا).

وإذا أخذنا كتاب جمال حمدان «**اليهود أنثروبولوجيًّا**» كمثال، وجدنا أنه ليس دراسة أكاديمية بالمعنى السلبى، وإنما دراسة عميقة كتبها عبقرى مصرى فلتة، **لا يكتب البتة إلا انطلاقًا من لحظة معاناة** ذات طابع تاريخى، ويهدف دائمًا إلى الوصول إلى الحقيقة.

لذا فكل كتب جمال حمدان **تحاول الإجابة عن سؤال ما**، وتصب كل

الأسئلة فى **مشروع فكرى واحد، محوره مصر**. لذلك فجمال حمدان «**صاحب موقف وصاحب فكر**» **وليس ناقلًا للأفكار**. فصاحب الفكر هو إنسان **يمتلك منظومة فكرية تتسم أجزاؤها بالترابط والاتساق الداخلى** (فهى تُعبِّر عن قلقه وآماله)، ويكمن وراءها نموذج معرفى واحد (رؤية محددة للكون). أما ناقل الأفكار، فهو إنسان ينقل بأمانة وحياد شديدين أفكارًا متناثرة لا يربطها رابط، وتنتمى كل فكرة منها إلى منظومة فكرية مستقلة، وهذه الموضوعاتية المتلقية فى واقع الأمر تعبير عن موت القلب والعقل والضمير والهوية.

*** جمال حمدان وأنا: التأثير والتأثر**

كلما تأملت فى علاقتى بجمال حمدان هالنى حجم **تأثرى بطريقة تفكيره**. لقد طالعت فى كتاباته الكثير من المعلومات والوقائع، فأخذت منها ما أخذت، واستبعدت ما استبعدت، ثم تبدلت المعلومات وتحورت، ولكن بقى ما هو أهم.

لقد تعلمت من جمال حمدان الكثير، تعلمت من فكره ورؤيته ومنهجه. من الواضح أننى تعلمت منه **رفض الواحدية المادية العلمية ورفض التعصب للمناهج المباشرة، كما تعلمت إعادة الاعتبار للخيال والمجاز والحدس فى عملية التفكير العلمى**. وتعلمت منه كذلك الخروج بالظواهر اليهودية والصهيونية من دائرة التوراة والتلمود والدراسات اليهودية وإدخالها فى نطاق العلم الإنسانى العام. ولكن أهم ما تعلمته منه هو **طريقة التفكير والنظر وكيفية التأمل فى المعلومات وتفسيرها**. لقد تعلمت من جمال حمدان **كيف تُكتشف الأنماط داخل ركام التفاصيل المتغيرة، وكيف نُجَرِّد الحقيقة من الحقائق**. ولا أدرى هل تعلمت منه أيضًا شيئًا من **الصلابة والقدرة على المقاومة؟**.

ثالثًا: رفض الرصد المباشر للواقع

الخريطة الإدراكية والنموذج المعرفى

القارىء الكريم ...

قطعنا مع د. المسيرى فى هذا الفصل شوطًا ممتعًا من رحلته، جَسَّد فيه رفضه للموضوعاتية المتلقية، ومن ثم رفض النظر إلى العقل باعتباره مستقبِلًا سلبيًّا كالكاميرا. وفى مقابل ذلك أَصَّل مفهوم **الموضوعية الاجتهادية** التى يقوم فيها العقل بوظيفة توليدية. وإذا كان د. المسيرى يرفض الرصد المباشر للواقع، فكيف إذًا يمكن أن نرصد هذا الواقع؟. للإجابة عن هذا السؤال ينبغى أن نقف مع إشكاليتين:

الأولى: كيف «**يدرك**» الإنسان الواقع المحيط به؟.

يجيب د. المسيرى بأن ذلك يتم من خلال «**الخريطة الإدراكية**».

الثانية: كيف «**ينظر**» الباحث أو المتأمل إلى فكر المفكر وسلوك المجتمعات؟

يرى د. المسيرى أن ذلك يتم من خلال منظور «**النموذج المعرفى كأداة تحليلية**» أى «**النماذج التحليلية**».

الثمرة الثانية والثمانون...

الخريطة الإدراكية: كيف يدرك العقل الواقع

لا يدرك الإنسان واقعه بشكل حسى مادى مباشر، إلا فى حالات نادرة تتسم بالبساطة، كأن تلسع يده سيجارة أو يدخل فى عينه جسم صلب. فالإنسان ليس فقط مجموعة من الخلايا والأعصاب والرغبات والدوافع المادية (الاقتصادية أو الجسمانية)، وسلوكه ليس مجرد أفعال وردود أفعال

مشروطة، تتحكم فيها قوانين الميكانيكا أو البيولوجيا. إن «**العقل الإنسانى**» **ليس مجرد** «**مخ مادى**»، ليس صفحة بيضاء تنطبع فيها الأحداث المادية كما يشبهه الماديون.

إن العقل الإنسانى يُدرك الواقع من خلال ما يُسقطه على هذا الواقع من أفراح وأتراح، وأشواق ومعان، ورموز وذكريات، وأطماع وأحقاد، ونوايا خَيِّرة وشريرة، وكذلك من خلال مجموعة من المفاهيم الأخلاقية والرمزية والأيديولوچية. وتعيش هذه الأمور فى عقل الإنسان (الواعى واللاواعى) ووجدانه وتشكل له «**خرائط إدراكية**» **يتعامل بها مع الواقع الخام**؛ فهذه الخرائط تستبعد وتهمش بعض التفاصيل فلا يراها، وتؤكد البعض الآخر بحيث يراها مهمة ومركزية، لهذا حينما يتصرف الإنسان فإنه لا يسلك كرد فعل للواقع المادى بشكل مباشر وإنما كرد فعل للواقع كما يدركه هو بكل تركيبيته.

ولنطرح مثالًا طريفًا يقربنا من مفهوم الخريطة الإدراكية: يُروى عن **مارى أنطوانيت** (ملكة فرنسا قبل الثورة) أن بعض الحراس وجدوا فلاحًا مغمى عليه من فرط الجوع، فأتوا به إليها، فأشفقت عليه وقالت له: «يا سيدى، لا يجب أن تتبع هذا الرجيم القاسى»! وفى رواية أخرى أنهم أخبروها أن الفلاح لم يجد خبزًا ليأكله مدة أسبوع، فقالت مستنكرة: «لماذا لم يأكل جاتوه؟»! لم تكن ظاهرة الفقر والجوع جزءًا من مخزون مارى أنطوانيت الإدراكى، لذا لم تستطع إدراكها، بل فسرت ما رأت بالأسباب التى تعرفها وتشكل خريطتها الإدراكية (الرجيم- الجاتوه بدلًا من الخبز)، أى أنها **أدركت ما حولها من خلال خريطتها الإدراكية**.

الثمرة الثالثة والثمانون...

تطبيقات على الخريطة الإدراكية

* الخريطة الإدراكية ونشأة الدولة الصهيونية

أرى أن **الدولة الصهيونية ليست دولة يهودية**، وإنما **دولة استعمارية استيطانية إحلالية** تؤدى وظيفة مزدوجة: تخليص أوروبا من اليهود مع نقلهم إلى فلسطين ليشكلوا قاعدة للاستعمار الغربى، أى أن المشروع الصهيونى حَوَّل يهود أوروبا والعالم إلى أداة لتحقيق هدفه الاستراتيجى. ولما كان من الصعب أن تقنع أى إنسان بأن يتحول إلى مجرد أداة، **كان لابد من تغيير خريطته الإدراكية بحيث يمكنه أن يتحرك بحماس ويحمل السلاح دفاعًا عما يتصوره ويتبناه.**

ولتحقيق ذلك تحركت القيادة الصهيونية على مستويين: أولًا، أكدوا لليهود والعالم أن اليهود كتلة بشرية قومية متماسكة لها تاريخها الخاص وخصائصها الفريدة وأن لها حق مطلق فى فلسطين، ومن ثم فهم «عائدون» إلى فلسطين (وليسوا محتلين أو مستعمرين) بناء على الوعد الإلهى وليس بناء على وعد بلفور. ثانيًا، أخذ الصهاينة يتحدثون عن التوراة والتلمود، واتخذوا بعض الرموز الدينية، حتى تصور الكثيرون أن دولتهم بالفعل دولة يهودية وأن ما تقوم به من بطش ومذابح دفاع مشروع عن النفس أو عن العقيدة أو عن أرض الأجداد أو عن الهوية اليهودية للدولة، وفى هذا الإطار تصبح المقاومة الفلسطينية مسألة غير مشروعة وغير مفهومة، بل وتصبح إرهابًا !.

* المواجهة بين الواقع والخريطة الإدراكية القاصرة

عادة ما تكون الخريطة الإدراكية غير واعية، يحملها الإنسان فى عقله ويتحمس لها ويعتقد أنها أكثر الأشياء صوابًا ومنطقية؛ فالإنسان العنصرى

لا يرى إلا فضائل قومه ومساوئ الآخر. **وأسوأ ما يمكن أن يحدث للإنسان هو اهتزاز ثقته فى خريطته الإدراكية**، وهذا ما حدث للمستوطنين الصهاينة مؤخرًا؛ فخريطتهم الإدراكية كان محورها وأساسها أن «فلسطين أرض بلا شعب»، أو على الأقل شعب يشبه الهنود الحمر يمكن القضاء عليه، لذلك أصدر المجلس الإقليمى لمستوطنات غور الأردن الاستعمارية قبل اندلاع انتفاضة الأقصى خريطة سياحية لا تظهر عليها أى قرى أو مدن عربية. ولكن الواقع أثبت العكس، إذ اكتشف المستوطنون أن فلسطين أرض يسكنها شعب عريق يمثل جزءًا من تشكيل حضارى قديم ومركب، وهو يتزايد كمًا وكيفًا بطريقة مزعجة. لذلك اهتزت الخريطة الإدراكية تمامًا لدى المستوطنين الصهاينة وسعوا إلى تغيير الواقع بالقوة حتى يتسق مع خريطتهم الإدراكية الأسطورية، ولكن الواقع يفرض نفسه ومقاومة أصحاب الأرض تتصاعد.

والخريطة الإدراكية ليست أمرًا راسخًا إذ يمكن تغييرها. فقطاعات لا بأس بها من الجماهير الإسرائيلية بدأت تدرك عبث محاولة فرض الأسطورة الصهيونية (الخريطة الإدراكية الصهيونية) على الواقع الفلسطينى. ومن أهم الأمثلة على إمكانية تحرر الإنسان من خريطته الإدراكية القاصرة وتبنى خريطة جديدة ما حدث **للمفكر اليهودى نيثان بير نباوم** الذى نلخص أطواره الفكرية فيما يلى:

1- **قام بتأسيس الحركة الصهيونية** واشترك فى المؤتمر الصهيونى الأول، بل هو الذى قام بنحت كلمة «صهيونية «ذاتها.

2- ثم اكتشف تدريجيًا خطورة الصهيونية باعتبارها حركة ستقوض الانتماءات الحقيقية ليهود العالم، فترك الحركة الصهيونية وانضم لدعاة اليديشية (لغة يهود شرق أوروبا)، الذين كانوا يطالبون بالحفاظ

على الهوية اليهودية الشرق أوروبية والتى يمكن أن تتحقق فى وطنها روسيا وبولندا (وهذا يختلف عن نقطة الانطلاق الصهيونية التى ترى أن ثمة هوية يهودية عالمية لا بد أن تتحقق فى أرض الميعاد).

3- ثم تغيرت خريطته الإدراكية بشكل أعمق، إذ وجد أن **العودة إلى اليهودية الحاخامية التقليدية** هو الحل الوحيد، وأصبح بذلك من أعدى أعداء الصهيونية (فاليهودية الحاخامية قبل صهينتها كانت تُحَرِّم العودة إلى فلسطين وتعتبر السعى إلى ذلك خطيئة كبرى، إذ يعقبها إبادة اليهود كما تشير التوراة).

*** كيف نتعامل مع الخريطة الإدراكية الغربية حول الصهيونية؟**

ينبغى أن يسعى السياسيون العرب لتغيير الخريطة الإدراكية للعالم الغربى عن الصهيونية. وأعتقد أن **حكم محكمة العدل الدولية فى لاهاى** يمكن أن يشكل بداية لإعادة الأمور إلى نصابها، فهو يبين أن الدولة الصهيونية دولة محتلة، وقد علقت الصحافة الإسرائيلية على هذا الحكم ووصفته بأنه يرفرف كراية حمراء فوق إسرائيل، وأنه سيضفى شرعية على عمليات المقاومة. كما يجب استغلال **قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1975** (والذى وسم الصهيونية بالعنصرية) فى اقناع العالم بإعادة تصنيف الدولة الصهيونية، (أى تغيير الخريطة الإدراكية التى تؤكد خصوصيتها وتفردها) والنظر إليها باعتبارها دولة منبوذة، تمامًا كدولة التمييز العنصرى التى حكمت جنوب إفريقيا من قبل.

وهذا المفهوم الذى ينبغى أن يتبناه الإعلام العربى هو أساس ما أسميه «**الحوار المسلح**»؛ الذى يعنى المقاومة المسلحة المستمرة التى يصاحبها إعلام قوى يحاول أن يبين حقيقة الصهاينة فى المنطقة بوصفهم جيبًا استعماريًّا استيطانيًّا إحلاليًّا يمثل الاستعمار الغربى ويخدم مصالحه.

* الخريطة الإدراكية والغزو الأمريكى للعراق

أعتقد أن قصور الخريطة الإدراكية كان وراء فشل المخابرات الأمريكية والإنجليزية بخصوص أسلحة الدمار الشامل وعلاقة الرئيس صدام حسين بتنظيم القاعدة، والتى استندت إلى أدلة ثبت زيفها فيما بعد، وما تبع ذلك من شن الحرب على العراق.

لقد كانت «**الخريطة الإدراكية الإمبريالية الأمريكية**» تنطلق من ضرورة غزو العراق (أعلن جورج بوش قبل 11 سبتمبر أن الولايات المتحدة ستغزو أفغانستان ثم العراق we will do Afghanistan first, then we will do Iraq)، والدافع وراء هذا المخطط كان تراجع الولايات المتحدة اقتصاديًا وتعاظم قوة آسيا الاقتصادية (خاصة الصين)، فأرادت الإدارة الأمريكية أن تدعم موقفها التفاوضى فى العالم بالهيمنة على منابع البترول فى بحر قزوين والعالم العربى. كما أن برنارد لويس، المستشرق الأمريكى الصهيونى، زَيَّن لبوش مسألة غزو العراق بقوله إن القضاء على الراديكالية الإسلامية والعربية يمكن تحقيقه بغزو دولة عربية كبرى وإخضاعها تمامًا. لقد استوعب المسئولون فى المخابرات الأمريكية هذه الخريطة الإدراكية الإمبريالية وبدأوا يجمعون الأدلة على وجود أسلحة دمار من بعض أعداء نظام صدام حسين، واستبعدوا كل الأدلة التى تناقض خريطتهم الإدراكية، وقد صدقت الإدارة الأمريكية هذه الأدلة لأنها كانت تريد تصديقها.

ومن سوء حظ أصحاب قرار الحرب أنهم لم يدركوا أن الإعلام الأمريكى قام برسم «**خريطة إدراكية حياتية للمواطن الأمريكى**» أدت إلى تفريغ هذا الإنسان ومن ثم الجنود الأمريكيين من كل القيم المثالية والنضالية. وتركز هذه الخريطة الإدراكية على: 1- تحوَّيل الإنسان الأمريكى إلى كائن اقتصادى استهلاكى ذو توجه شديد نحو اللذة وتحقيق الذات، 2- أن كل الأمور

نسبية، ولا يوجد معيار يُرجع إليه عند الحكم على الأمور مما يعنى تقويض الإيمان بأى شىء، 3- أصبح الإنسان الأمريكى غير مهتم بالسياسة الخارجية وشئون العالم، وتفرغ لأمور معاشه التى تمسه شخصيًّا وترك مشاكل الدفاع والسياسة الخارجية للإدارة الأمريكية. لذلك عند إرسال مثل هذا الشخص إلى بلد خارجية، فإنه لن يقاتل بضراوة ولن يتحمل أى ألم؛ فالإنسان لا يتحمل الألم إلا من خلال إيمانه بشىء ما يتجاوز ذاته الضيقة.

كما أن صانع القرار الأمريكى لم يدرك أيضًا «**خريطة العراقيين الإدراكية**» وتُصوَرَهم مجرد حيوانات اقتصادية مادية سترحب بالمحتل. لم يدرك الأمريكيون أن قيمًا معنوية كامنة تحرك العراقيين مثل رفض الظلم والاحتلال، وإدراكهم العميق للطبيعة الاستعمارية للمشروع الأمريكى، وكذلك إيمانهم بالله الذى يملأهم ثقة بأنفسهم وبمقدرتهم على المقاومة أمام الآلة العسكرية الضخمة.

الثمرة الرابعة والثمانون...

النموذج المعرفى كأداة تحليلية: النموذج التحليلى

إن النموذج المعرفى عند د. المسيرى هو **المنظار الذى ينبغى أن ينظر الباحث من خلاله إلى الواقع**. فالإنسان فى واقع الأمر لا يدرك شيئًا مما حوله بشكل مباشر، وإنما من خلال نموذج معرفى يتم تكوينه تدريجيًّا، حتى يصبح جزءًا من وجدانه وسليقته وإدراكه. أما الإدراك المباشر للواقع بتفاصيله المتناثرة فهو تلق سطحى للأمور (كعدسة الكاميرا) لا يؤدى إلى أى فهم حقيقى.

ونكرر هنا المثال الذى طرحناه فى مقدمة الكتاب حتى يَسْهل علينا فهم معنى النموذج المعرفى: إذا نظرنا إلى واقع المسلمين، فإن من يتخذون «**فكر**

المؤامرة» نموذجًا معرفيًا ينظرون من خلاله للواقع، سيرجعون حالنا المتدنى إلى تحالف قوى خارجية آثرت ألا تقوم للمسلمين قائمة. أما من يتمتعون بالقدرة على النقد الذاتى ويعتبرون أن النجاح هو محصلة مقدمات وأسباب، إن أخذنا بها أصبنا النجاح وإن أهملناها أصابنا الفشل، فهؤلاء ينظرون إلى الواقع من خلال نموذج «**الأخذ بالأسباب**» ويُحَمِّلون تقصيرنا مسئولية ما نحن فيه إلى حد بعيد.

والباحث لا يخترع النماذج التحليلية، فهى «**كامنة**» فى النصوص التى يقرؤها الإنسان أو يكتبها، وفى الظواهر الاجتماعية التى يحيا داخلها والمعايير التى يعيش وفقها. ومهمة الباحث - فى تصورى - أن يحاول «**اكتشاف**» هذه النماذج فى أدب هذا الأديب وفكر ذلك المفكر وفى سلوك أعضاء هذا المجتمع، وعلى الباحث بعد ذلك «**صياغة**» النموذج التحليلى ثم يقوم بـ«**النظر من خلاله للواقع**»، فيقوم بتفكيك الواقع (أى فك عناصره الأساسية الواحد عن الآخر) ثم إعادة تركيبه بحيث يصبح الواقع أو النص مفهومًا بشكل أكبر (عملية تأسيس).

ومما لا شك فيه أن **التفكيك** أمر ضرورى للتأمل والنقد، فهو يكشف المفاهيم الحقيقية الكامنة بعد أن يزيل الغشاوات التى يزيف بها أصحاب المصالح الحقيقة. ومهمة الناقد التفكيكى أن يكشف عناصر التحيز الكامنة فى الخرائط الإدراكية والنماذج التحليلية المهيمنة والتى تعبر عادة عن وجهة نظر السلطة القائمة. أما **التأسيس** فهو عملية إبداعية تركيبية تتجاوز التفكيك، فهى تتطلب الغوص فى كل الأبعاد السياسية والاقتصادية والدينية والمعرفية للظاهرة، كما تتطلب نحت نماذج تحليلية جديدة وإعادة ترتيب الوقائع وتصنيفها فى ضوئها. وبالأمثلة يتضح المعنى:

الثمرة الخامسة والثمانون...

تدريبات عملية على النماذج المعرفية

يدربنا د. المسيرى على صياغة النماذج المعرفية وعلى النظر من خلالها إلى الواقع من خلال حديثين شريفين صحيحين:

الحديث الأول: قال رسول الله ﷺ «عُذِّبت امرأة فى هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار، لا هى أطعمتها وسقتها إذ هى حبستها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض». والحديث الثانى: فهو قول رسول الله ﷺ «بينما رجل يمشى اشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منه ثم خرج، فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى، فملأ خُفَّه ثم أمسكه بفيه ثم رقى، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له. قالوا: يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجرًا؟ فقال: فى كل ذات كبد رطبة أجر».

إذا قمنا بحصر عناصر الحديثين بأسلوب **الموضوعاتية المتلقية** التى تنظر إلى الأمور بسطحية، سيبدو الحديثان كما لو كانا **متناقضين**:

الحديث الأول	الحديث الثانى
امرأة – هرة – جوع	رجل – كلب – عطش
بطش بالحيوان وزيادة الجوع	رفق بالحيوان ورَىْ العطش
الموت للقطة، وجهنم للمرأة	الحياة للكلب، والجنة للرجل

أما إذا طلبنا فهمًا أعمق للحديثين، وأردنا أن ندرك العلاقة بينهما فينبغى أن ننظر إليهما من خلال مفهوم **النموذج المعرفى**. وللوصول إلى نموذج معرفى يجمع الحديثين يجب اتباع **الأسلوب المنهجى لتكوين وصياغة النماذج المعرفية**، ونَبسطه فيما يلى:

1- نبدأ بأن **نزيل عن الموقف الذى ندرسه التفاصيل غير ذات الدلالة.** فى موقفنا هذا لا يوجد ما يمكن حذفه، فرسول الله ﷺ قد أوتى جوامع الكَلِم.

2- نجمع بين التفاصيل الهامة المتشابهة (**عملية ربط**).

3- نستنبط من عملية الربط معنى مشترك (**عملية تجريد**).

2- ربط بين الحديثين	**3- تجريد معنى مشترك**
الرجل والمرأة	إنسان
القطة والكلب	حيوان
الجوع والعطش	شعور الكائن الحى
حياة وموت	نتيجة حتمية
البطش والرفق بالحيوان	فعل إنسانى
زيادة الجوع ورى العطش	شعور حيوانى
موت القطة وحياة الكلب	نتيجة مادية
الجنة والنار	عاقبة غيبية

4- ثم **نزيد من عمليات الربط والتجريد** فنضع الأحداث على هيئة :

فاعل – مفعول به – فعل – عاقبة.

5- ويمكن بعد ذلك أن **نرتفع بعمليتى الربط والتجريد إلى المستوى المعرفى ورؤية الكون.** ويحتاج ذلك معرفة بعض المفاهيم الأساسية الحاكمة فى الإسلام (الاستخلاف – الأمانة – موضع الإنسان فى الكون).

6- وبعد عمليات الإبقاء والاستبعاد والربط والتجريد **تتكون صورة أو خريطة إدراكية** تترسخ فى أذهاننا ووعينا بحيث لا نرى الواقع إلا من خلالها، ونبنى عليها **النموذج المعرفى** الذى نحلل فى ضوئه المواقف المشابهة (**عملية إدراك وتحليل**).

نستنبط من قراءتنا السابقة النموذج المعرفى الذى يدور حوله الحديثين: «يبلور الحديثان **علاقة الإنسان بالطبيعة**، وهى علاقة استخلاف واستئمان، فالإنسان يُوجَد فى مركز الكون لأن الله كرمه وحباه عقلًا وحكمة. وقد سخر الله للإنسان الطبيعة لكنه ليس بصاحبها، فقد استخلفه فيها وحسب، وقد قَبِل الإنسان أن يحمل الأمانة، لذا لا ينبغى أن يبددها وكأنه وحده فى الكون: كائن لا متناه متأله».

*** من الكوسة والفول المدمس إلى العلاقات الأسرية**

ويضرب د. المسيرى مثلًا طريفًا على النماذج التحليلية من خلال مقارنة عقدها بين طريقة طبخ الطعام فى مصر وفى الولايات المتحدة، فقال: حينما يتناول **المصرى** طعامه، فهو **يتناول وجبة ساهمت آلاف السنين من التاريخ المصرى فى طهوها**. لهذا السبب، نحن لا نقدم **الكوسة** المسلوقة (والعياذ بالله) إلا للمرضى، أما الأصحاء فهم يأكلونها إما بالبشمل، أو محشية بالأرز أو اللحمة المفرومة أو كليهما، أو قد تُقدَم مطبوخة بالصلصة والسمن البلدى، وتستطيع أن تقول نفس الشىء على **الفول المدمس** الشهير، الذى يُترك على نار دافئة طوال الليل حتى ينضج ثم يضاف له بعد ذلك الزيت والملح والليمون.

على العكس من هذا، حينما يقرر **المواطن الأمريكى** تناول طعام العشاء (الوجبة الرئيسية) فزوجته عادةً ما تقدم له كمية لا بأس بها من البطاطس الحتمية المسلوقة أو المقلية، مع الهمبورجر أو مع شريحة كبيرة من اللحم المشوى أو المطبوخ، وحينما يسأم الأمريكى رتابة حياته الغذائية فهو عادةً يتناول وجبة أجنبية (صينية أو فرنسية) نتاج تاريخ بلد آخر. وبمقارنة الطريقتين نجد أن **الطريقة المصرية فى الطهو أكثر تركيبًا من الطريقة الأمريكية**، وهذه سمة تميز طعام الشعوب ذات الحضارات العريقة.

وإذا نظرنا إلى علاقة الرجل بالمرأة وبالأسرة فى المجتمعين المصرى والأمريكى لاحظنا نفس الاختلاف. **فالرجل الأمريكى حينما ينظر إلى امرأة، فإنه يرى امرأة وحسب.** فإذا أراد التعرف عليها فلا داعى للمؤامرات والمناورات والتلميحات. وإذا قرر الزواج منها فهو يتزوجها دون ضجيج أو صخب (ويطلقها بالبساطة نفسها). وهو عادةً ما يذكر هذا الأمر لأسرته (الأب والأم والإخوة والأخوات)، فالأعمام والأخوال وأولادهم ليسوا من الأسرة، وقد يدعوهم لحفل زفافه من باب العلم بالشيء وحسب، لأنه لا يبغى رضاهم ولا يخشى سخطهم، **فعلاقته بأسرته قد انقطعت بعد بلوغه الثامنة عشرة** وربما قبل ذلك السن، واقتصرت على المقابلات فى أعياد الكريسماس، ثم تظل تضمر إلى أن تقتصر على تبادل بطاقات المعايدة أو رسائل التليفون المحمول الخالية من أى محتوى إنسانى شخصى. لقد أصبت بالغثيان حينما تسلمت تقريرًا عاطفيًّا عائليًّا أرسله لى أحد أصدقائى يخبرنى فيه (ويخبر مائة شخص آخر) بأنه وزوجته وأولاده يرفلون فى حُلل السعادة وأنهم يخصوننى بالسلام!.

أما المصرى فإنه حينما ينظر إلى امرأة فإنه يرى امرأة ويرى معها طبقة اجتماعية وتاريخًا طويلا. فإذا قرر التعرف عليها، يجب أن يعرف خلفيتها العائلية لأن هذا سيحدد تكتيك وإستراتيجية الهجوم، وإن قرر الزواج فالزواج لا يتم على سنة الله ورسوله وحسْب بل أيضًا حَسَب ما تقتضيه الطقوس الاجتماعية من شبكة ومهر ومقابلات بين الأسر للتعارف والتباهى. وهذا المصرى بعد زواجه يُبقى على علاقته بأمه وأبيه وأخيه وبأم زوجته وأبيها وأخيها. وعلى الزوج والزوجة أن يُقَسِّما وقتهما بالعدل والقسطاس فى زيارة أقارب الطرفين، والويل كل الويل لمن لا يحترم الموازين

الدولية الدقيقة. وإذا أراد المصرى أن يُطلِّق ـ لا قدر الله ـ فإنه يكتشف أن الطلاق هو أبغض الحلال عند الله، وأن المجتمع لن يتركه وشأنه قبل أو بعد الطلاق، فرسل الصلح وفاعلو الخير ـ ولله الحمد ـ كثيرون.

وكم كنت أصاب بالذعر الشديد لرؤية هؤلاء الأمريكان «المَرِنين» وهم **يودِعون أمهاتهم وآباءهم فى بيوت العجزة**، التى شُيدت لتسد حاجة نشأت فى المجتمع الأمريكى نتيجة لتفكك الأسرة الأمريكية. فعندما تبلغ سن الخامسة والخمسين فأنت لا تقطن مع ابن من أبنائك، كما لا يمكنك أن تعيش فى منزل بمفردك لأنه سيكون مكلفًا وكبيرًا على احتياجاتك، لذا تنتقل إلى أحد هذه المنازل المزودة بكل وسائل الراحة العصرية لتعيش فيه بقية أيامك الأرضية. وإذا قارنت بين **بيوت المسنين ومعسكرات الاعتقال النازية**، فستجد أن كليهما يضم بشرًا يرى المجتمع أنهم غير منتجين أو «أفواه تستهلك ولا تنتج «useless eaters، لكن بينما يتم القضاء على المسنين فى الغرب بالتبريد (أجهزة تكييف الهواء) كان يتم إبادة نزلاء معسكرات الاعتقال النازية بالتسخين (أفران الغاز).

أما فى الشرق، حينما تهرم الأم أو الأب فإننا لا نرسلهما إلى «بيوت العجزة»، فهى غير منتشرة بعد فى مجتمعنا المتخلف. بل على المصرى أن يُقفى على علاقته بأبويه؛ يرسل إليهما النقود ويحارب ضد زوجته التى ترى أنه يبالغ بعض الشىء فى كرمه، كما تحارب هى ضده حتى تبقى على علاقتها الوثيقة مع أمها (أى حماته المصرية الشهيرة) التى تنغص عليه عيشته دائمًا. **إن الفرد المصرى لا وجود له خارج هذه الشبكة الهائلة من الطقوس الاجتماعية والقيم الدينية**، فوجوده وجود اجتماعى تاريخى بالدرجة الأولى، ووجود فردى بالدرجة الثانية.

القارىء الكريم...

بعد هذه الجولة، هل أدركت العلاقة بين أساليب الطبخ وبين العلاقات الأسرية؟ إن هناك نموذجًا معرفيًا واحدًا يهيمن فى الحالتين، نموذج يمكن تلخيصه فى كلمة واحدة «التاريخ». فالسلوك المصرى يتميز (**بالإقرار بالتاريخ**) سواء فى طريقة طهيه للطعام أو فى علاقاته الأسرية. أما السلوك الأمريكى فيهيمن عليه (**الإنكار للتاريخ**)، إنها الذاتية والفردية وحسب، إنه سعى لتحقيق الفرد المطلق Sovereign individual الذى يُشار إليه بأنه نقطة منعزلة.

الثمرة السادسة والثمانون...

النموذج المعرفى كلما ازدادت روافده ازداد اقترابًا من الحقيقة بل ربما تغير النموذج إلى النقيض

من السمات المهمة للنموذج المعرفى أنه يساعد على تعميق الرؤية كلما ازداد تركيبية وكلما أضيفت إليه معلومات وظواهر كانت مهمَلة أو مهمَشة فى الماضى.

خذ على سبيل المثال **الإمبريالية الغربية (الاستعمار)**؛ ينظر إليها الكثيرون باعتبارها «**انحرافًا**» عن مسار الحضارة الغربية (مسارها الليبرالى الديمقراطى الإنسانى... إلخ)، وهم بذلك يستبعدون كمًا هائلًا من المعلومات الهامة. أما إذا غيَّرنا النموذج **ونظرنا إلى الإمبريالية بحُسبانها جزءًا عضويًّا من الحضارة الغربية** وتعبيرًا عن شىء أساسى وجوهرى فيها، فإن كمًّا كبيرًا من المعلومات الجديدة سيدخل بسهولة ويسر فى نطاق النموذج التحليلى وسنكتشف أهميتها.

سنكتشف ـ على سبيل المثال ـ أن **إبادة الشعوب الأخرى** ليست مسألة انحراف، وإنما نمط عام متكرر: ملايين الهنود فى الأمريكتين ـ السكان الأصليون فى أستراليا ـ سكان الخانات التركية المجاورة لروسيا على يد الدولة القيصرية ـ إلقاء القنبلة الذرية على اليابان (دون حاجة عسكرية ماسة لذلك) ـ الفلسطينيون (الطرد والإبادة) ـ الجزائريون ـ شعب فيتنام... كما سنكتشف مثلًا أن قفزة الولايات المتحدة الصناعية فى الثلاثينيات من القرن الماضى تعود إلى حدٍّ كبير إلى العمالة الرخيصة (التى قدمها **ملايين العبيد السود**)، وأن مجموع ما سلبته إنجلترا من الهند إبان **ثورتها الصناعية** يفوق كل ما أنتجته فى تلك الفترة. هل أدركت ـ بعد تعديل النموذج المعرفى ـ بلاهة الحديث عن «التقدم الغربى «بحُسبانه نتيجة عناصر خاصة بالمجتمعات الغربية.

انظر كذلك إلى **النموذج الصهيونى لتفسير ظاهرة الدياسبورا (المنفى)**. يشيع الصهاينة أن اليهود كانوا يعيشون فى وطنهم، ثم جاء القائد الرومانى تيتوس فحاصر القدس وهزم اليهود وهدم الهيكل، وبعدها بدأ نفى اليهود وتشتيتهم. هذه هى الرواية الصهيونية السائدة، التى يقبلها الجميع تقريبًا، وهذا النموذج يوجه أنظارنا إلى مجموعة من المعلومات ويستبعد غيرها. إن عدد اليهود بعد سقوط الهيكل (سنة 70 ميلادية) أصبح صغيرًا بالفعل، ويُرجع اليهود ذلك إلى تشتتهم القسرى. وعندما لاحظت أن الغالبية الساحقة ليهود العالم المعاصرين لم تهاجر إلى «وطنها القومى» المزعوم، **طَرَحْت نموذجًا بديلا**، وعدت إلى التاريخ لأقارن بين مصداقية النموذج البديل والنموذج الصهيونى. اكتشفت أنه قبل هدم الهيكل كان عدد اليهود الموجودين خارج فلسطين يفوق عدد اليهود داخلها بعدة أضعاف، فاليهود لم «يُنفوا» ولم «يُشتتوا» قسرًا وإنما انتشروا وحسب، شأنهم فى ذلك شأن كثير

من الجماعات البشرية الأخرى، وما كان هدم الهيكل سوى عنصرًا مساعدًا. أما الحرب التى خاضها تيتوس فلم تكن حربًا للرومان ضد اليهود، بل كانت حربًا للرومان ضد فريق من اليهود، إذ شارك الجيش الرومانى المحاصِر للقدس جيشٌ يهودى بقيادة «ملك اليهود» أجريبا الثانى، بل إن أخت أجريبا الثانى كانت عشيقة تيتوس وكان ينوى الزواج منها. بذلك تبنيت نموذجًا يرى **أنه عبر التاريخ آثرت الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية الاستقرار فى أوطانهم خارج فلسطين، وهو النمط الذى استمر حتى الوقت الحاضر.**

الثمرة السابعة والثمانون...

النموذج المعرفى يمكن أن يتطور

لاحظت أثناء إقامتى خلال فترتين منفصلتين فى الولايات المتحدة (1963/ 1969 – 1975/ 1979) أن الجو الثقافى والأخلاقى العام يختلف قبل عام 1965 وبعده. فالولايات المتحدة فى النصف الأول من الستينيات كانت محافظة بشكل كبير، ثم بدأت **حركة الجنس الحر**، أو الجنس بلا ضوابط Free love movement، وصاحَبَها قدر من التفكك بدأ يتزايد بسرعة تفوق الوصف. فعلى سبيل المثال، كنا أنا وزوجتى نستضيف بعض الطالبات الأجنبيات فى منزلنا فى الأعياد، وكان علينا ـ قبل عام 1965 ـ أن نوقع على أوراق نتعهد فيها بإعادتهن إلى المدينة الجامعية قبل العاشرة مساءً. وحينما عدت فى السبعينيات، وجدت هناك بيوتًا مختلطة للطلبة والطالبات. كما أصبح الشذوذ الجنسى الذى كان «عيبًا» فى الستينيات مقبولًا تمامًا فى السبعينيات، بل أصبح الآن من قلة الحياء أن تذكر هذا الموضوع، إذ تم «تطبيعه» بحيث يصبح أمرًا طبيعيًّا تمامًا مثل الجنس العادى.

*** قال رسول الله ﷺ**

«لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى إذا دخلوا جحر ضب تبعتموهم».

حينما تركت **بلدى فى الستينيات**، كانت مصر تحكمها المعايير الأخلاقية، كما كان «العلم» كان محترَمًا وكانت الأبواب تُفتح حينما يعلم الناس أن الشخص الفلانى «دكتور». كما كان النظام الاشتراكى يضمن للناس الحد الأدنى من الرزق والكرامة، وكنت أخبر الأمريكيين أن مصر قد تكون بلدًا فقيرًا إلا أن الإنسان لا يمكن أن يُفصل من عمله إلا إذا ارتكب كبيرة، وأن ثمن السلع الغذائية الأساسية ثابت لا يؤثر فيه التضخم، كما أن إيجار المسكن زهيد للغاية. وكانت الدولة تجعل الثقافة فى متناول الجميع؛ فالكتب يشتريها من يريد، والموسيقى العربية والعروض المسرحية الهادفة يمكن الحصول على تذكرة لحضور حفلاتها ببضعة قروش.

حينما أذهب للولايات المتحدة الآن، فإننى لا يمكن أن أتحدث عن الأشياء نفسها. **فنقطتى المرجعية (مصر) قد تغيَّرت**، وأصبحت السوق الحرة هى الآلية الكبرى فى عالم الاقتصاد والأخلاق وأصبحت النقود هى المعيار الذى يَجُب غيره من المعايير. ولذا فالثقافة أصبحت باهظة التكاليف، كما أصبح العلم موضع سخرية وأصبح الطعام مكلفًا للغاية (حتى ساندوتش الفول الذى كان فى متناول الجميع). وحينما يجلس المواطن الآن أمام التليفزيون المصرى فإنه يقذفه بالإعلانات التى تحول زمانه الخاص إلى سوق يباع فيها كل شىء ويُشترى. أما انتشار العُرى والإباحية فى الطرقات والإعلام وكذلك انتشار الزواج العرفى فى المدارس والجامعات (النسخة الشرقية لحركة الجنس الحر) فحدث ولا حرج.

تعلمت من كل **هذا أن ما يحدث فى بلد ما قد يحدث فى بلد آخر إذا ما توافرت المقدمات والظروف المشابهة، «فالمستقبل ثمرة من ثمرات الحاضر»**. وفى إطار هذا التصور أصبح من الحتمى أن أنظر إلى الحالة فى مصر بحُسبانها حلقة فى سلسلة تتابع حلقاتها، وكما سرنا على خطى الغرب منذ بداية تنويره المظلم وحتى الآن، فمن المتوقع أن تستمر المسيرة (شبرًا بشبر وذراعًا بذراع).

*** الغـرب مفهـوم وليـس جغـرافيـا**

ينبغى أن ننظر إلى الغرب ليس باعتباره بقعة جغرافية، وإنما هو مفهوم أخذ يتطور ويأخذ أشكالًا مختلفة إلى أن أصبح كالآلة التى لا تكترث كثيرًا بالإنسان؛ تدور لتفرم الجميع حتى صاحبها. من كان يتصور فى الماضى أن ما يحدث الآن فى مصر كان يمكن أن يحدث؟. باختصار شديد، أنا لا أرى أن الشرق شرق والغرب غرب، أو أن الشرق روحى والغرب مادى، وإنما أرى أن **هناك سلسلة من المفاهيم إن أمسكت بتلابيب حضارة ما سقطت هذه الحضارة فى هذه المفاهيم حتى آخر حلقة فى السلسلة** (إلا إذا تصدى لها الإنسان بوعى إنسانى وأخلاقى).

الحلـوليـــة
ووحـدة الوجـود

الثمرة الثامنة والثمانون...

النزعة الجنينية والنزعة الربانية

السقوط فى الوحل أسهل كثيرًا من الصعود إلى النجوم

يُعتبر **التمييز بين الإنسانى/ الربانى وبين الطبيعى/ المادى** هو المحور الرئيسى فى تصورى عن العالم، وهو أيضًا الفكرة الأساسية الكامنة وراء

نموذَجَىّ الحلولية والعلمانية الشاملة. ولفهم هذين النموذجين لا بد أن نميز بين ما أسميه «النزعة الجنينية» و «النزعة الإنسانية أو الربانية».

أما «**النزعة الجنينية**» فهى نزوع لرفض كل الحدود التى تفصل بين الطبيعة والإنسان، وبين المخلوق والخالق، وتنظر إلى الإنسان باعتباره كائنًا ماديًّا غير متميز، لا خصوصية له. وهى محاولة للهرب من الواقع الإنسانى بما يفرضه من ثنائيات: خير وشر، إمكانيات النجاح والفشل، النهوض والسقوط، الحرية والحتمية، أى أنها **نزعة للهروب من تركيبية الذات الإنسانية وما يترتب عليها من أعباء ومسئوليات وتكاليف إلى عالم بسيط أحادى البُعد (الطبيعة/ المادة)**.

هذا العالم الذى يهرب إليه الإنسان **يشبه الرحم**، حيث لا يفصل الجنين فاصل مادى أو معنوى عن رحم أمه، كما يشبه حياة الطفل الرضيع الذى يتصور أنه لا يزال جزءًا لا يتجزأ من أمه، وحينما يمسك **بثديها** يتصور أنه **قد تحكم فى العالم بأسره، وأنه قد تواصل مع العالم كله، فيشعر بالطمأنينة الكاملة، ولا توجد لديه أى رغبة للتجاوز لعالم أرحب**، ويظل الإنسان فى هذه الحالة إلى أن يتم فطامه وانفصاله عن أمه.

وقد أدرك مصمم الإعلان التليفزيونى عن سيارة BMW الذى شاهدته فى التليفزيون الفرنسى شيئًا من هذا المعنى. يبدأ الإعلان بثدى أم، ثم تظهر صورة طفل يمسك بهذا الثدى ويبدأ فى الرضاعة، ثم تعرض الكاميرا صورة رجل يجلس مستريحًا على كرسى السيارة، وكأن الرجل فى علاقته بالسيارة مثل الطفل فى علاقته بثدى أمه، إنها العودة إلى عالم ملىء بالطمأنينة وبلا مشكلات.

أما **النزعة الإنسانية أو الربانية**، فهى نزعة تميز الإنسان عن الطبيعة، والمخلوق عن الخالق، مما يعنى أن **العالم يتسم بقدر من الثنائية**. وتعنى أيضًا أن الإنسان (حين يلغى وحدته مع الطبيعة ومع الخالق) يصبح كائنًا حرًا

مسئولًا، **يقبل عبء الهوية الإنسانية**، يعيش داخل الزمان مثل الكائنات الطبيعية ولكنه يدرك أنه مختلف عنها، فهو مستخلَف من الله، يحوى داخله عنصرًا غير مادى غير طبيعى (نسميه «القَبَس الإلهى»)، عنصر يُحول الإنسان من إنسان طبيعى إلى إنسان إنسان أو إنسان ربانى.

إن هاتين النزعتين أصيلتين فى النفس البشرية، تتنازعانها بشكل دائم. وجاذبية النزعة الجنينية (فى مقابل النزعة الربانية) عالية للغاية، فهى تعمل مع قانون الجاذبية الأرضية وتعمل الثانية ضده، وكما أقول إن السقوط فى الوحل أسهل بكثير من الصعود إلى النجوم.

الثمرة التاسعة والثمانون...

الحلولية عودة إلى الرحم وإلغاء الثنائيات

إنها ثمرة النزعة الجنينية

تُعَبر النزعة الجنينية فى الإنسان (الرغبة فى العودة إلى طمأنينة الرحم وإلغاء الثنائيات والذوبان فى الكل – الطبيعة أو الإله –) عن نفسها من خلال ما أسميه **مذهب «الحلولية» أو «الكمون»**، الذى يرى أن العالم بناءٌ عضوى واحد خاضع لقوانين واحدة كامنة فيه. ويرى مذهب الحلولية أن كل ما فى الكون (الإله والإنسان والطبيعة) مُكَوَّن من جوهر واحد، كما أن القوة المنظمة للكون ليست منفصلة عنه وإنما كامنة (حَالَّةٌ) فيه. لذا فالعالم مكتف بذاته نشأة وتنظيمًا، أى عالم واحدى لا يعرف الثنائيات.

الثمرة التسعون...

الحلولية ووحدة الوجود

ويؤدى مذهب الحلولية إلى مفهوم وَحْدة الوجود، التى تتبدى فى صيغتين متعارضتين ظاهرًا متفقتين حقيقة:

(أ) **وحدة الوجود الروحية** (الحلولية الروحية): وفيها يُسمَّى الجوهر الخالق والمنظم للكون «الإله»، لكنه إله يَحِلُّ فى مخلوقاته ثم يتوحد معها ويذوب فيها تمامًا بحيث لا يصير له وجود دونها ولا يصير لها وجود دونه، أى أنه لا يبقى من الإله سوى اسمه، فهو إله متحد تمامًا بالطبيعة المادية. ومن ثم يُصبح العالم ذو بُعد واحد لا يتسم بأى ثنائية للخالق والمخلوق، (**أنت هو وهو أنت**)، فكل الأشياء تسرى فيها روح القداسة وبنفس الدرجة: الشجرة ـ الطفل ـ القمامة ـ الخير ـ الشر ـ الطاقة ـ القوة.

ومن ثم يمكن الحديث بلغة روحية عن عالم المادة وبلغة مادية عن عالم الروح. وحين يمارس المرء تجربة جسدية ممتعة فيمكنه أن يصفها بأنها تجربة روحية ! والشعر الصوفى الحلولى ملىء بالإشارات الجنسية، تلميحًا فى بعض الأحيان وتصريحًا فى أحيان أخرى.

(ب) **وَحْدة الوجود المادية** (الحلولية المادية): وفيها يُسمَّى الجوهر الخالق والمنظم للكون «**قوانين الطبيعة**» أو «**القوانين العلمية**» أو «**حركة التاريخ**» أو «**الحتمية التاريخية**» إلى آخر هذه المطلقات. ويتم الاستغناء تمامًا عن اسم الإله (الذى احتفظ باسمه فى وحدة الوجود الروحية). وبذلك يحل الخطاب المادى الصرف محل الخطاب الروحى، فكل الأشياء فى نهاية الأمر مادية متساوية، ويعتبر هذا الخطاب أن قوانين الطبيعة/ المادة قوانين شاملة يمكن تفسير كل الظواهر ـ ومن بينها الإنسان ـ من خلالها.

*** وحدة الوجود والصوفية**

يجد الإنسان الذى يعيش فى عالم الحواس (النزعة الجنينية) صعوبة بالغة فى التعامل مع الأمور الغيبية وفى الانطلاق نحو الربانى، ومن هنا تَعلُقَّ

بعض الصوفية بالأضرحة والأولياء والسحر، هذه الأمور التى تُمكنهم من **إدراك عالم الغيب من خلال الحواس الخمس.**

وكثيرًا ما نجد المنشد فى الإنشاد الصوفى أن يبدأ قصيدته بالحديث عن فتاة جميلة (ليلى أو لبنى) وكذلك بذكر الخمر:

أنــا مشغــولٌ بليلى   عـن جميـع الكـونِ جُملـة
فـإذا مــا قيـلَ مـــن ذا   قـل هـو الصَّـبُ المُوَلَّـه
أخذتـــه الـــراحُ حتـــى   لـــم تُبَـقِّ فيـــه فَضْلَـــه
راحُ أنـــسٍ راحُ قـــدسٍ   ليســـت الـراحُ المُضِلَّـــه*

ويكشف لنا البيت الرابع أن الحبيبة والخمر رموز لمعانٍ أعمق.

إن المُنشد يأخذ بيد الناس ويرقى بهم من المحسوس الجنينى الذى يعيشون فيه (الحب الحسى المباشر) إلى الله، الذى ليس كمثله شىء رغم أنه أقرب إلينا من حبل الوريد، وعادة ما يكون ذلك عبر حب الرسول ﷺ، أقرب الناس إلى الله، ولكن إن هو إلا بشر مثلنا.

والنزعة الجنينية المتمثلة فى الرغبة فى إدراك الغيب بالحواس الخمس **نزعة أصيلة فى النفس الإنسانية**، لذلك لم ينكرها الإسلام، بل عمل على إشباعها فى حدود لا تتعارض مع العقيدة. لذلك أخبرتنا الأحاديث القدسية أن الله ﷻ وضع الكعبة فى الأرض حتى يطوف الإنسان حولها كما تطوف الملائكة حول البيت المعمور. كما جعل الحجر الأسود ممثلًا ليمين الله فى الأرض، من أراد أن يصافحها فعليه أن يشير إليه أو يلمسه أو يُقَبِّله إن استطاع.

* الحلولية باب إلى الإيمان أو إلى الكفر والوثنية:

قد تقود الحلولية من الإيمان إلى الكفر والوثنية إذا اعتقد المرء أن الله ينزل من عليائه ويتحد بمخلوقاته، وتصبح (أنت هو وهو أنت). لكنها قد تصبح

* من شعر الإمام عبد الله بن عَلَوى الحداد الحضرمى (1044 – 1132 هـ).

بابًا للإيمان واليقين حين تجعل الإنسان يدرك أن العالم ليس شيئًا ماديًا ميتًا لا روح فيه، بل ينبض بالحياة والقداسة ﴿... فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ...﴾ [البقرة: 115]. ثم تأخذ بيده ليتجاوز الأشياء ليصل إلى الله (الجوهر الخالق الكامن وراء الأشياء المتعددة والمفارق لها) **وبذلك تظل أنت أنت وهو هو.**

من هذا المنظور، أرى أن **المخلوقات إن هى إلا تجليات لأسماء الله الحسنى**، أى أننا ندرك صفات الله ﷻ من خلال مخلوقاته. خَلَق المرض لنعرف اسمه الشافى، وخلق الكون اللامتناهى لنعرف اسمه الواسع، وخلق العلم والجهل لنعرف اسمه العليم، وخلق الغنى والفقر لنعرف اسمه الغنى والمغنى، وهكذا. وبذلك صار الوجود مرآة يرى المتأمل فيها أسماء الله وصفاته.

الثمرة الحادية والتسعون...

الحلولية بين اليهودية والإسلام والمسيحية

يرى التصور **الإسلامى والمسيحى** لحياة الإنسان وتاريخه أن الإله جعل **الإنسان فى الدنيا حرًّا مختارًا ذو إرادة**، لكنه فى الوقت نفسه لم يهجره كليةً ولم يتركه يغرق فى الأمور النسبية بلا مرجعية، كما أخبر الإله الإنسان أنه سيثيبه أو يعاقبه فى اليوم الآخر (خارج الزمان الإنسانى). لذلك فالإنسان حر لكنه مُكلف، فالإله أرسل إليه الكتب السماوية وطالبه باتباع القيم الأخلاقية. ومن ثم فالإنسان ليس ضائعًا يدور فى حلقات مفرغة: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا (تعيش فى التاريخ)، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا (تواجه المطلق)». هذه **دعوة للإنسان ألا تستغرقه الأشياء النسبية والأمور الواقعية**، وأن يحاول تخطيها وتجاوزها والتسامى عليها، ولكنها فى الوقت نفسه **تأكيد لحق الإنسان فى أن يعيش فى الحياة الدنيا حرًا ليحقق لنفسه أكبر قسطًا من**

السعادة. يقف الإنسان وقدماه مغروستان فى الأرض وعيناه شاخصتان للسماء، وهذا هو سر عظمة الإنسان ومأساته، وهذا أيضًا هو سر وجوده الإنسانى المُرَكَّب.

وقد صُفِّيَت هذه الثنائية وهذا الصراع والتوتر إلى حدٍّ كبير فى **التراث اليهودى**. فوحدة الوجود اليهودية (أو قل وحدة الوجود الصهيونية) جعلت الإله (المطلق) يحل فى الأمة المقدَّسة والأرض المقدَّسة (النسبى) مما جعل الإله هو الأمة والأرض (وهذا هو ثالوث وحدة الوجود: الإله والإنسان والطبيعة)، وينجم عن هذا أن يفقد المطلق سموه ووجوده كخالق متصرف، كما يفقد النسبى حدوده وكيانه كمخلوق.

ويصف بعض الحاخامات الذين بقوا داخل إطار العقيدة اليهودية وحدة الوجود بأنها عقيدة شيطانية، ويصفون الدولة الصهيونية بأنها «العجل الذهبى» الذى صنعه السامرى؛ شىء مادى ألَّهه اليهود بدلًا من الخالق وهذه هى **الوثنية بعينها**. ويتفق كل من الصهاينة المتدينين والصهاينة الملاحدة فى أن **الشعب اليهودى «حلت فيه القداسة»**، ولكنهم يختلفون بخصوص مصدر هذه القداسة؛ فالمتدينون يرجعونها إلى حلول الخالق فى شعبه وأرضه، بينما يرى الملحدون أن اليهود شعب مقدس، خلع القداسة على نفسه.

الثمرة الثانية والتسعون...

الحلولية والفكر المادى

لما كانت الحلولية ترى أن الوجود مكتف بذاته، ولا حاجة لجوهر من خارجه ليكون مسئولًا عن خلقه وعن استمراره، فإننا نرى أن **الحلولية تنظر إلى كل ظاهرة باعتبارها ظاهرة مكتفية بذاتها**، تحوى داخلها ما يكفى لتفسيرها. لذلك **فالفلسفة المادية** فى تصورى فلسفة حلولية ترى أن الطبيعة

مكتفية بذاتها، **والفلسفة النيتشوية** (وأصلها الداروينى) فلسفة حلولية تمامًا، تجعل الإنسان مكتفيًا بذاته، لا يمكنه أن يستمد معياريته من خارج ذاته، لا تحده حدود أو قيود أو سدود، **والسوبرمان** هو قمة هذا الاتجاه. كما تُعبر الحلولية عن نفسها فى فكرة **الإنسان الاستهلاكى الباحث عن لذته وعن مصلحته**، فهو يجعل من ذاته مرجعيته النهائية والوحيدة. وكذلك يُعتبر «**الشذوذ الجنسى**» بهذا المعنى تعبيرًا متطرفًا عن الحلولية؛ إذ يستغنى الإنسان عن الجنس الآخر، وسيتطور الأمر إلى شيوع «**الاستمناء**» ليصبح الإنسان مكتفيًا بذاته تمامًا.

الثمرة الثالثة والتسعون...

الحلولية ونهاية التاريخ

تؤدى الحلولية ـ بانكارها ثنائية الوجود الإنسانى وتركيبيته ـ بالضرورة إلى **نهاية التاريخ**. إن المقصود بنهاية التاريخ فى واقع الأمر هو «نهاية الإنسان كما نعرفه، ودخوله فى الحالة الجنينية ورفضه للحالة الربانية»، إنها **سيادة الإنسان الطبيعى/ المادى واختفاء الإنسان الربانى**. إنها تعنى كذلك اختفاء الحدود الإنسانية؛ فيتجاوز الفرد حقوق الآخرين (الله – البشر). أنظر إلى تصور المستوطنين الصهاينة أن «فلسطين هى أرض بلا شعب»، وإلى نظر المستوطنين الأوائل فى أمريكا الشمالية إليها بحسبانها «أرضًا عذراء». إن كلا الفريقين ينكر تاريخ الأرض التى اغتصبها، لينكر على المواطنين الأصليين حقوقهم بل وإنسانيتهم.

إن العصر الحديث هو عصر نهاية التاريخ، فالحضارة الحديثة المرتبطة بآليات السوق وبالعرض والطلب، هى حضارة مرتبطة بآليات بسيطة لا تعرف تركيبية الإنسان وتنكر اهتمامه بما هو غير مادى، فهو إنسان ذو بُعد مادى واحد، وعقله عقل أدائى (يغرق فى التفاصيل والإجراءات، ولا يمكنه

إدراك الأنماط التاريخية والغيبية). **فالسوق والمصنع بآلياتها البسيطة يتطلبان إنسانًا طبيعيًّا ماديًّا بسيطًا**، ليست له علاقة بالإنسان/ الإنسان المركب. وتزعم **المجتمعات الاستهلاكية** أنها قادرة على إشباع جميع رغبات الإنسان المادية والروحية من خلال مؤسساتها الإنتاجية والتسويقية والترفيهية، إن المجلات الإباحية بل والإعلانات التليفزيونية كلها محاولات لإنهاء التاريخ، عن طريق النهايات السعيدة التى تلغى أى تدافع أو تركيب.

وقد جَسَّد أحد الأفلام السينيمائية فكرة نهاية التاريخ بأسلوب طريف: فعشيق الزوجة فوجئ بتساهل عشيقته بل وزوجها أيضًا، فلم يحتمل الموقف وسارع لمفارقتها، فتسأله مستنكرة: «إلى أين أنت ذاهب، ما مشكلتك؟ «فيقول: «مشكلتى أنك لا توجد عندك أى مشكلة! My problem is that you have no problem». إن العشيق يعنى أن عشيقته ليس عندها أى إحساس بالذنب أو بالخير والشر، كل شىء بالنسبة لها طبيعى بسيط محايد، والإنسان ليس بسيطًا ولا طبيعيًّا ولا محايدًا، أى أنها بموقفها هذا أنهت ظاهرة الإنسان وأنهت التاريخ.

العلمانية الشاملة

الثمرة الرابعة والتسعون...

العلمانية الجزئية

تطالب العلمانية التى تدارسناها منذ سنوات قليلة وكان يرفضها الكثيرون بفصل الدين عن الدولة، وكانت تلزم الصمت بخصوص الحياة الخاصة وبخصوص المرجعية النهائية للقرارات السياسية والاقتصادية. أى **أن هذه العلمانية تترك حيزًا واسعًا للقيم الإنسانية والأخلاقية المطلقة، بل**

وللقيم الدينية ما دامت لا تتدخل فى عالم السياسة بالمعنى الفنى (ولذا أسميها العلمانية الجزئية أو العلمانية الأخلاقية أو العلمانية الإنسانية).

قد تم تعريف العلمانية بهذا المفهوم فى القرن التاسع عشر، حينما كانت الدولة كيانًا ضعيفًا هزيلًا لا تتبعه أجهزة أمنية وتربوية قوية، كما لم يكن هناك إعلام قوى يصل إلى المواطن فى منزله. ونتيجة لذلك ظلت الحياة الخاصة بمنأى عن عمليات العلمنة، وظلت تحكمها القيم الأخلاقية والدينية.

وأنا باعتبارى مدافعًا عن الإنسان والإيمان، **لا أرى أى غضاضة فى تقبل العلمانية الجزئية**، أى فصل الدين عن السياسة وربما الاقتصاد. إذ إننى بكل صراحة لا أحب أن أرى شيوخًا أو قساوسة أو فلاسفة أو أساتذة أدب إنجليزى يجلسون فى لجان تناقش طرق تحسين التصدير وميزان المدفوعات أو نوع السلاح الذى يجب علينا تزويد جيشنا به. فمثل هذه **الأمور الفنية يجب أن تُترك للفنيين، ولكن المرجعية النهائية (الاستراتيجية والمعرفية والأخلاقية) للدولة وكذلك الحياة الخاصة هى أمور لا يمكن أن تُترك للفنيين**، بل ينبغى أن تهيمن عليها القيم الدينية والأخلاقية.

الثمرة الخامسة والتسعون...

سيل العلمانية الشاملة الكاسح:

البعض كان يرفض العلمانية الجزئية والآن يتحسر عليها

ثم حدثت تطورات ضخمة فى القرن العشرين غيَّرت الصورة تمامًا. لقد **تَغَوَّلت الدولة** وحولت نفسها ومصلحتها إلى مرجعية نهائية تَجُبُّ كل المرجعيات (كان شعار الشرطة: الشرطة فى خدمة الشعب، تم تبدل إلى: الشرطة والشعب فى خدمة الدولة)[1]، أصبحت دولة قوية ذراعها طويلة

(1) تم استعادة الشعار السابق بعد ثورة 25 يناير 2011.

يمكنها أن تصل لكل المواطنين من خلال مؤسساتها الأمنية والتربوية والإعلامية. **وتَوَحَّش الإعلام**؛ وأصبحت مؤسساته قادرة على الوصول إلى المواطن فى أى مكان وزمان تزوده بمختلف المرجعيات وتلقنه القيم المادية كبديل للقيم الأخلاقية !. علاوة على هذا فإن ثمة تحولات أساسية كبرى (التصنيع - الهجرة إلى المدينة... إلخ) ساهمت فى **تغيير رؤية الإنسان وإشاعة النسبية والحيادية والانفصال عن القيمة**. لكل هذا لم يعد للتعريف القديم الجزئى للعلمانية أى علاقة بالواقع الجديد، ومع هذا استمر المصطلح واستمر استخدامه.

لذلك قمت بصياغة مصطلح «**العلمانية الشاملة**» لأصف وضع المجتمع العلمانى بعد التطورات التى أشرت إليها، فهى **أيديولوچية كاسحة لا يوجد فيها مجال للإنسان أو للقيم**، ومن هنا لا يمكنها أن تتصالح مع الدين أو القيم الثابتة أو الإنسان، **بل تختزل حياة الإنسان فى البعد المادى وحسب**.

وأُعرِّف **العلمانية الشاملة** بأنها ليست مجرد فصل الدين عن الدولة وعن بعض جوانب الحياة العامة وحسب، وإنما هى «**فصل القيم والغايات الدينية والأخلاقية والإنسانية عن الدولة وعن مرجعيتها النهائية وعن حياة الإنسان العامة والخاصة، مع تطبيق القانون الطبيعى/ المادى على كل مناحى الحياة، بحيث يتم تسوية كل الظواهر الإنسانية بالظواهر الطبيعية، فتُنزَع القداسة تمامًا عن العالم ويتحول إلى مادة استعمالية، يمكن إدراكها بالحواس الخمس**».

إن من أهم أشكال العلمنة ما يسمَّى بـ«**بوحدة العلوم**» (العلوم التجريبية والعلوم الإنسانية)، التى تنفى وجود فروق جوهرية بين الظواهر الطبيعية والظواهر الإنسانية، ومن ثم فإن النماذج التحليلية التى تصلح

لدراسة إحداها تصلح لدراسة الأخرى، باعتبار أن قوانين المادة تسرى على كل الكائنات، لا تفرق بين الإنسان والطبيعة !.

ويستمر التدهور، حتى **يُعَرِّف الإنسان ذاته فى ضوء احتياجاته المادية** (اللى معاه قرش يسوى قرش) ويحكم على نفسه وعلى العالم بمعايير مستقاة من عالم الطبيعة/ المادة، فيختفى الإنسان الإنسان (الإنسان الربانى) ويظهر الإنسان الطبيعى، أى أن المنظومة العلمانية تبدأ بسحب المفاهيم من عالم الإنسان وتضعها فى عالم مستقل تسميه «عالم الأشياء»، ثم تسحب الإنسان نفسه من عالم الإنسان وتضعه فى عالم الأشياء هذا.

وأخيرًا أقول إن **العلمانية الشاملة التى تحول العالم إلى مادة استعمالية هى الوجه الآخر للإمبريالية** التى استغلت العالم ووظفته لصالح الإنسان الغربى. وكذلك فإن **الصهيونية** التى حولت فلسطين والفلسطينيين، بل وأعضاء الجماعات اليهودية فى العالم، إلى مادة استعمالية قابلة للتوظيف (تهجير يهود العالم من أوطانهم - تهجير الفلسطينيين خارج وطنهم) هى إحدى تبديات نموذج العلمانية الشاملة.

*** فى إطار العلمانية الشاملة تختفى المرجعية الإنسانية،**

ويستمد كل مجال من مجالات النشاط الإنسانى معياريته من نفسه

تمثل العلمانية الشاملة سلسلة من حلقات، تبدأ **بعالم الاقتصاد** الذى يصبح مكتفيًا بذاته مستمدًا معياريته من نفسه، وتختفى منه المرجعية الإنسانية العامة التى تعمل على مراعاة القيم والغايات الإنسانية. ثم تتوالى حلقات السلسلة فيستمد كل مجال معياريته من نفسه، ويتم الحكم عليه من منظور مدى كفاءته فى تحقيق أغراضه؛ فبعد أن أصبحت المعايير فى المجال الاقتصادى اقتصادية، تصبح المعايير فى المجال السياسى سياسية، وفى المجال العلمى علمية، وفى المجال الجمالى جمالية.

ثم تتصاعد هذه العملية إلى أن يتفسخ العالم إلى مجالات غير متجانسة، متناثرة لا يربطها رابط، بعد أن كان **الأصل أن تؤدى كلها إلى غاية كبرى واحدة وهى سعادة الإنسان الربانى**.

وبينما اسمى العلمانية الجزئية «**المرحلة الصلبة**»، إذ ما زالت هناك قيم إنسانية صلبة يُحتكم إليها، فإن العلمانية الشاملة هى «**المرحلة السائلة**»، ذلك لغياب أى مرجعية، من أى نوع، يُحتكم إليها.

وانطلاقًا من هذا الفهم قمت بتطبيق مفهوم العلمانية الشاملة كنموذج تحليلى على كل مناحى الحياة: الطعام – الشراب – الملابس – القوانين – المعمار – السياسة... إلخ، لأبيِّن تصاعد معدلات العلمنة.

وكما ذكرت، **تبدأ سلسلة التدهور العلمانى بعالم الاقتصاد**، والمثال الصارخ لذلك ما يحدث فى الولايات المتحدة وباقى الدول المنتجة للقمح، إذ تُلقِى الفائض من إنتاجها فى المحيط !! حتى لا ينخفض سعر القمح. هذا فى الوقت الذى يموت فيه الكثيرون من مواطنى دول العالم الثالث من الفقر والجوع، لقد اختفت المرجعية الإنسانية وأصبح المهم هو ألا ينخفض سعر القمح، أى صار الاقتصاد هو معيارية نفسه.

فى **مجال الفن** أنظر إلى حالة **الفنان الفوتوغرافى الياباني «العالمى» آراك** الذى يتسم فنه بنوع من الإباحية المنفصلة عن القيمة تمامًا. حقق هذا الرجل شهرته بأن صور مراحل موت زوجته بالسرطان، لقد حَوَّل زوجته إلى مادة استعمالية ولم يُفرِّق بين الإنسان والشىء الطبيعى/ المادى. والفيلم الوثائقى الذى شاهدته عنه فى التليفزيون البريطانى يعرض منظرًا لفتاة صغيرة تريد أمها أن يقوم آراك بتصويرها عارية والفتاة ترفض لأنها لا تود أن تتجرد من ملابسها، وتحاول أمها مع الفنان أن تقنعها لأن ذلك سيجعلها مشهورة، لقد أصبحت الشهرة قيمة مطلقة ومرجعية نهائية منفصلة عن القيمة.

كذلك فإن ممارسة **الرياضة** فى الماضى كانت تهدف إلى تهذيب الجسد وتدريب الناس على التعاون وعلى الصراع الرقيق لتفريغ نزعاتهم العدوانية من خلال قنوات متحضرة. ولكن تدريجيًّا تنفصل الرياضة عن كل هذه القيم لتصبح مرجعية ذاتها، وتصبح معايير الرياضة رياضية، ويصبح إحراز النصر وتحطيم الأرقام القياسية هو الهدف الأعلى والأسفل والوحيد. ونسمع بعد ذلك عن تفرغ اللاعبين تمامًا للرياضة، وبيعهم وشرائهم وتحولهم إلى نجوم تُستخدَم فى الإعلانات، فاقتصاديات السوق تقتحم هذا القطاع تمامًا. ونسمع بعد ذلك أن عددًا كبيرًا من الرياضيين يستخدم المخدرات لتحقيق النصر. أين كل هذا من قيم التعاون والصراع الرقيق والمرجعية الإنسانية؟.

الثمرة السادسة والتسعون...

مرة أخرى: ينبغى مناقشة فاتورة التقدم.

كيف الوقـوف فى وجـه السيل؟.

إن العلمانية الشاملة هى ذاتها «التحديث على النمط الغربى». **وعادةً ما يُعرَّف التحديث بأنه تبنى العلم والتكنولوچيا والعقل، ولكننى أضيف «المنفصلين عن القيمة والغاية»**، وذلك حتى يتسنى التحكم فى الإنسان والطبيعة تحكمًا كاملًا. فالتحديث جوهره تطبيق نموذج الطبيعة/ المادة على ظاهرة الإنسان.

وحينما كنت فى الولايات المتحدة فى أواخر الستينيات، حين بدأت العلمنة تتزايد بمعدلات لم يعهدها البشر من قبل، كنت أتصور أن **أوروبا** بموروثها الثقافى والتاريخى ستضع بعض الحدود على هذه العلمنة الشاملة. ولكن تدريجيًا بدأت أوروبا تلحق بركب «التقدم»، وتهاوت مقولة التراث الحضارى فى مواجهة التفكك العلمانى. وحينما أسير فى لندن وأرى المنازل

العريقة والعادات الأصيلة وأرى معدلات التفكك، أدرك أن «الأنتيكة» لا يمكن أن تحل محل المنظومات الأخلاقية والدينية كدرع ضد العلمانية !.

ومما يؤسَف له أن الكثيرين من **دعاة الحداثة فى العالم العربى** يرددون ما يقوله الغرب عن الحداثة الغربية دون أن يطرحوا رأيهم ورؤيتهم فى الموضوع، **فيتبنون أفكار الحداثة والتقدم بحلوها ومُرَّها**، بخيرها وشرها، دون تساؤل، ويصنفون كل المشكلات بحُسبانها ثمنًا معقولًا للتقدم. ولعله قد حان الوقت كى نقارن مكاسب التقدم بخسائره، ونرى كم الثمن فادح، وهل يمكن الإفلات من هذا المصير أم لا.

وهذه الحادثة الطريفة تبين مدى التبعية الإدراكية (أن نفكر من خلال نماذج الآخر): كنت مرة أشاهد التليفزيون فى إحدى الدول العربية، وكان المتحدث هو مدير شركة الطيران القومية لهذا البلد، وأتى بعدة إحصائيات عن حركة الطيران فى العالم، ثم ختمها بإحصائية عن الإنسان الحديث؛ فذكر أنه ينتقل من مكان لآخر بمعدل كذا ميل فى السنة. ثم أردف قائلًا بوقار بالغ وتقوى واضحة: «ونحن نقترب من هذا المعدل بعون الله»! وكأن اقتلاع الإنسان من مكانه وزمانه وانتقاله كالشىء من مكان لآخر هو أحد طموحاتنا وآمالنا.

***